العدد الأول | السنة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

الاشتراكات
مـ
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

ربيع الأول سنة ١٣٧٢ — نوفمبر سنة ١٩٥٢

هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

ولكم فى القصاص حياة :

قرأت فيما قرأت أنه وقعت حادثة قتل فى إحدى قرى مديرية الشرقية فى زمن محمد علي ، فألف لها محكمة خاصة لتحقيقها والحكم فيها ؛ فوقفتُ عند هذه الحقيقة أتأملها : حادثة قتل واحدة يؤلف لها الحاكم محكمة خاصة . واليوم محاكم الجنايات مقامة فى عاصمة كل مديرية ، وتفصل فى قضايا القتل التى لا تعد بالآحاد بل تعد بالعشرات ؛ وأصبح القضاة لا ينفعلون بهذه الحوادث ولا يهتمون بها ، ويحكمون فيها كأنها مسائل عادية لا توجب الفزع ولا الاهتمام . وقلَّ أن يُحكم فى واحدة منها بالقصاص ؛ بل يحكم فى بعضها بعقوبات تافهة لا تشفى الغليل .

وقفت عند هذه الحالة وتأملتها ، فوجدت أن حال الناس قد عادت إلى جاهلية مظلمة ؛ فالقاتل لا يقتل ، بل يُتهم غيره لعلم الناس أن المحكمة لا تحكم بالقصاص . فيقدَّم غير القاتل حتى يحكم عليه ، ويبقى هذا طليقا خارج السجن ليقتص منه أهل القتيل . فإذا قتل انتقم أهله من أهل قاتليه ، عُرف القاتل من بينهم أو لم يعرف . وقد عدد لى

العدد الأول

السنة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
قرش
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

ربيع الأول سنة ١٣٧٢ — نوفمبر سنة ١٩٥٢

هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي
المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

ولكم فى القصاص حياة :

قرأت فيما قرأت أنه وقعت حادثة قتل فى إحدى قرى مديرية الشرقية فى زمن محمد علي ، فألف لها محكمة خاصة لتحقيقها والحكم فيها ؛ فوقفتُ عند هذه الحقيقة أتأملها : حادثة قتل واحدة يؤلف لها الحاكم محكمة خاصة . واليوم محاكم الجنايات مقامة فى عاصمة كل مديرية ، وتفصل فى قضايا القتل التى لا تعد بالآحاد بل تعد بالعشرات ؛ وأصبح القضاة لا ينفعلون بهذه الحوادث ولا يهتمون بها ، ويحكمون فيها كأنها مسائل عادية لا توجب الفزع ولا الاهتمام . وقلّ أن يُحكم فى واحدة منها بالقصاص ؛ بل يحكم فى بعضها بعقوبات تافهة لا تشفى الغليل .

وقفت عند هذه الحالة وتأملتها ، فوجدت أن حال الناس قد عادت إلى جاهلية مظلمة ؛ فالقاتل لا يقتل ، بل يُتهم غيره لعلم الناس أن المحكمة لا تحكم بالقصاص . فيقدَّم غير القاتل حتى يحكم عليه ، ويبقى هذا طليقا خارج السجن ليقتص منه أهل القتيل . فإذا قتل انتقم أهله من أهل قاتليه ، عُرف القاتل من بينهم أو لم يعرف . وقد عدد لى

أحد الشهود إذ كنت أحقق بعض القضايا ثلاثة عشر قتيلا ترتب قتلهم على قتل رجل لم يحكم على قاتله بالقصاص. وقد حصل فى بعض قرى الوجه القبلى أن قتيلا قُتل فذهب أهله إلى عمدة القرية — وهو كبير عائلة القاتل — وطلبوا منه أن يسلمهم القاتل ليقتلوه، فكبر عليه ذلك وردهم ردا غير جميل؛ فكان هو أول قتيل، ثم استحر القتل بين العائلتين إلى أن بلغ القتلى ثمانية عشر، وشرع فى قتل نحو أربعين، وأصبح الواحد منهم لا يأمن على نفسه أن يبرز خارج البيت، وبارت زراعتهم وتجارتهم، وركبهم الفقر، وأصبحوا فى حالة يرثى لها.

وأمثال ذلك كثير فى قرى الريف. وحوادث القتل دائما فى ازدياد.

والذى يتأمل هذه الحال ويتعرف أسبابها يجزم بأن القانون الذى نحكم به قانون وضعى، لم ينزل به أمر خالق الخلق وهو أعلم بخلقه، وأعلم بما يصلحهم وما يفسدهم. ولو اتبعنا ما أمر الله به لكان لنا فى ذلك حياة: حياة القاتل الذى يتروّى إذا عرف أنه لا محاله مقتول بمن قتل، وحياة أهله الذين يُنتقم منهم جهلا وكيدا.

القانون الوضعى يقضى بألا يُقتل القاتل إلا إذا كان القتل مع سبق الإصرار أو الترصد، ثم هو يبيح مراعاة الظروف المخففة، فيجيز للمحكمة أن تنزل عن عقوبة الإعدام إلى عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة؛ وذلك مراعاة لأحوال الجانى وظروف ارتكابه الجناية اعتبارا بأن القاتل والمقتول ملك الدولة، وأنها تصلح من شأن القاتل بما يتفق وحاله. ولا يلقى القانون بالا لأهل المقتول الذين تلتاع أفئدتهم من رؤية القاتل يمشى على الأرض بعد قتل والدهم أو أخيهم أو أحد أقاربهم. ومن هنا كان التخفيف عن عن القتلة، ومن هنا كانت النفوس التى لا تطمئن إلى هذه الحال فتَجرى فى القاتل وأهله العقاب الذى يشفى غليلها ويبرد قلوبها.

إن خالق الخلق هو أعلم بهم؛ لذلك كان وضعه للعقوبات متفقاً مع أحوال الناس، جانين ومجنيا عليهم، وما يرضيهم وما يسخطهم. وكان القرآن لذلك جباراً فى عقوباته إذا شاء أهل الدم القصاص، وكان كذلك رءوفا رحيما إذا عفوا وغفروا، أو إذا رضوا بأن يأخذوا الدية.

فعقوبة القاتل — بسبق إصرار أو بدونه — هى القتل، ولأهل القتيل أن يأخذوا الدية — ولهم أن يعفوا ويصفحوا — وهذا يفيد أنه لا يراعى فى القصاص إلا مرضاة أهل القتيل وبراءة نفوسهم من الضغن الذى يدعو إلى القتل وتجاوز الحد فيه: «ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل» فإذا طلبوا

القصاص فقد وجب ، ولا يرضى نفوسهم إلا هذا ، وإذا قبلوا الدية فقد قدروا مصلحتهم . ولعلهم يجدون الخير كل الخير فى أن يفعلوا ذلك إذا كانت بينهم وبين القاتل قرابة ، أو كان للمقتول صبية يستفيدون من الدية أو غير ذلك من الأسباب ، ولهم أن يعفوا عمن قتل ، وذلك أقرب للتقوى ، وليس للدولة أن تتدخل فيما بينهم فتقتص من القاتل إذا لم يشاءوا — على ماذهب إليه بعض الفقهاء — وما دخولها بينهم إذا صفت نفوسهم ولم يعد فيها من دواعى الحفيظة شىء ؟ إن ادعاء أن القاتل والمقتول ملك للدولة بعيد عن المعقول ؛ والدولة فى هذه الصورة ليست إلا قوامة على حفظ الأمن ، فإذا استقامت أموره فلا عليها بعد ذلك أن يكون الناس أحباباً لا أعداء . وصدق الله العظيم :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً (١) » .

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٢) » .

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً (٣) » .

« وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (٤) » .

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٥) » .

اللهم إنا نسألك أن تهدى أولى الأمر منا إلى العودة إلى أحكام كتابك الكريم ، والعمل به ؛ حتى تصلح أحوالنا فى الدنيا والآخرة .

(١) سورة النساء — ٩٢ .
(٢) « « — ٩٣ .
(٣) « المائدة — ٣٢ .
(٤) سورة الإسراء — ٣٣ .
(٥) سورة البقرة ١٧٨ ، ١٧٩ .

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

(٩)

أفق الروح*

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١)

* * *

هل يستطيع أحد أن يصف لنا الصدق : ما لونه ، وما وزنه ، وما حجمه ، وما طعمه ، وما هيئته ، وما تركيبه ؟ !

إن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك ؛ لأن الصدق شىء لا لون له ولا طعم ، ولا وزن له ولا حجم ، ولا هيئة له ولا تركيب ! ! ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن هذا الصدق قوة فاعلة لها أثرها فى واقع الحياة ! ! ولست أعنى أثرها الاجتماعى حين يتخذها الناس دستوراً لأقوالهم وأعمالهم ، وإنما أعنى أثرها الخاص فى نفس صاحبها باعتبارها قوة دافعة تجتاز السدود ، وتحطم القيود ، وتهدر كل اعتبار يعترض سبيلها ، أو يتعارض مع غاياتها وأهدافها ؛ فكم رأينا الصدق يهدر اعتبار الصداقة ويتخطى بصاحبه كل الموانع والعوائق المعنوية ليقول الحق ضد مصلحة صديقه ؛ وكم رأيناه يهدر كل اعتبارات البنوة ويحطم موانعها العزيزة ليقول الوالد الحق ضد مصلحة ولده ؛ بل كم رأيناه يجتاز بصاحبه كل اعتبار للمصلحة الخاصة ليقول الحق على نفسه وهو غير آسف على ما يفوته من نفع ، ولا وجل مما يلحقه من أذى (٢) . !

---

* نفتتح بهذا البحث النفيس باب قصص القرآن لعام المجلة الثانى ، وهو نظرة عالية فى آفاق فسيحة مشرقة تلقى ضوءاً صافياً على كل ما كتبه أستاذنا الجليل من قبل عن آدم عليه السلام ، وعلى الطريق الطويل الذى سيسير فضيلته بنا فيه مع أنبياء الله ورسله .

(١) الإسراء — ٨٥ .

(٢) لعل فى هذا ما ينقض المذهب الخاسر الذى يقول إن تصرفات المرء لا تتأثر إلا بالعوامل المادية القائمة على ما يبتغى لنفسه من نفع اقتصادى خاص دون دخل لأى اعتبار روحى يناقض المصلحة الخاصة .

فالصدق — إذاً — قوة كامنة فى النفس لها أثرها الواقعى ، وهو مثل نضربه للعوامل الروحية التى لها آثارها الملموسة فى الحياة دون أن ترى بالعين ، أو تلمس باليد ، أو تدرك بحاسة من الحواس ؛ فإذا تقرر هذا سهل علينا أن ندرك شعاعاً من أشعة معنى قوله سبحانه : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . . . ولا أقول إن الروح كالصدق ، أو إن الصدق كالروح ، وإنما أقول إنهما يلتقيان فى أن لكل منهما وجوده الواقعى الذى لا ينكر ، دون أن يكون له مادة تتألف منها أجزاؤه !

وقد نفخ الله سبحانه فينا سراً من روحه ، فكان الصدق والأمانة والشجاعة ونحوها من صفات الخير ثمرة من ثماره . . . ومحاولة الكشف عن حقيقة هذا السر ضرب من الجهود الذاهبة سدى ما دامت حواسنا العادية هى سبيلنا الوحيد لما نحصل من علم ومعرفة ؛ وحسبنا فى مقامنا هذا أن نتكلم عنه باعتباره أفقاً من آفاق الإنسان ، وموهبة من مواهبه الجليلة لها أكبر الأثر فيما أسند إليه فى هذه الأرض .

ومن الملاحظ أن الله سبحانه لم يقل فى الملائكة أو الجن إنه نفخ فيهم من روحه ، بل جعل ذلك خصوصية للانسان وحده ؛ فلماذا أمده الله سبحانه بها ؟

هل وهبها له ليعبده بها ؟

إن العبادة ليست هى العلة التى أوجبت اختصاص الإنسان بتلك الخصوصية ، فالملائكة يعبدونه سبحانه دون حاجة إليها ، وكذلك الجن ... وإنما تظهر العلة إذا لاحظنا — إلى جانب الملاحظة السابقة — أن الله جلّ شأنه لم يقل فى الجن ولا فى الملائكة إنه جاعلهم فى الأرض خلفاء ، بل خص الإنسان وحده بذلك ، فمن خلال الارتباط الوثيق بين خصوصية الروح وخصوصية الخلافة تنقدح العلة الصحيحة ، ويسوغ لنا أن نقول إن تلك الروح هى الملكة الربانية ، أو الجهاز الإلهى — ولله المثل الأعلى — الذى جهز به الإنسان ليؤدى به كثيراً من حقوق ما أسند إليه .

إن الخلافة ميدانها الأرض ، وهى خلافة عن الله سبحانه ، فلزم أن يكون للخليفة مواهب تناسب طبيعة العمل الأرضى البحت ، وأخرى ذات روح إلهية لا تمت إلى الأرض بصلة ، ولا تستفيد منطقها من العمل فى الأرض ، بل من نور الله وفضله سبحانه .

***

ولقد قلنا فيما سبق إن تلك الروح تحيي فى كيان الإنسان كائناً روحيا له حياة تخالف طبيعة حياة البدن ... فإذا ساغ لنا أن نقول إن للرجل المؤمن كيانين : كيان مادى هو البدن ، وكيان معنوى هو الكائن الروحى ، وأن السر الذى يحيا به البدن غير السر الذى يحيا به الكائن الروحى ، إذا ساغ ذلك فإن لنا أن نلتمس آثار الحياة ومظاهرها فى ذلك الكائن المعنوى ، كما نلتمسها فى الكائن المادى ، فإن للحياة فى كل شىء حلّت به آثار ومظاهر ! !

وإن من آثار الحياة فى البدن الحركة أو القدرة على الحركة وإنجاز الأعمال ؛ فهو الذى يحرث الأرض ويتعهد الزرع ، ويطرق الحديد ، ويتصرف بجوارحه فيما لهذه الأرض من ثروات ، فهل للكائن الروحى من أثر فى محيطه المعنوى يقابل أثر البدن فى محيطه المادى ؟. نعم له فى محيطه المعنوى آثاره الروحية الباهرة ، فالحب والإخاء ، والوحدة والتعاون على البر والتقوى ، والصدق والمواساة والشجاعة فى الحق ، ذلك وأمثاله من الصفات التى يثمرها الإيمان فى قلوب المؤمنين ، إنما هو الأثر الواقعى لنشاط الحياة الروحية فى الكائن المعنوى على ما أسلفنا فى غير موضع . . . بل إن سر تلك الموهبة يتعدى الميدان الروحى إلى الميدان الحسى حيث يمد صاحبه فى أعماله بطاقات من القوة — من مصدر غير منظور — يهون بها العسير ، ويقل فى همتها الكثير ، ويمحى بها فى ميدانه كل مشقة : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » ولقد شكت فاطمة رضى الله عنها لأبيها عليه الصلاة والسلام ما تجد من مشقة الرحا حين تديرها لطحن طعامها وطعام بنيها ، فعلمها كلمات من ذكر الله سبحانه تقولها كلما أمست ،قالت فاطمة فلم أجد بعد ذلك ما كنت أجد من مشقة أو أذى .

هذا ، ومن آثار الحياة فى البدن أن تهب له السمع والبصر وسائر الحواس ، وكذلك حياة هذا الكائن الروحى تهب له سمعاً وبصراً ، ولكنه سمع آخر ، وبصر على غير ما يعهد الناس من ابصار . . . فالسمع فى البدن آلته الأذن ، والبصر آلته العين أما السمع والبصر الآخران فمركزهما جميعاً القلب ولا آلة لهما . . . والسمع والبصر الظاهران يتعلقان بإدراك الصورة الظاهرة من كل شىء أو كل صوت ؛ أما السمع الروحى والبصر القلبى فمن الحواس الباطنة التى تتعلق بإدراك العبرة فى كل قول تسمعه وفى كل شىء تراه ؛ والعبرة رحيق يحيي النفوس ، ويلين القلوب ، لأنه سر الله فى كل شىء ، ولله فى كل شىء سر لا يدرك إلا بتلك الحواس .

فإذا لم يكن البدن يسمع أو يبصر فهو إما ميت ، وإما أصم أو أعمى ؛ وكذلك شأن هذا الكائن الروحى قد يعتريه الصمم أو العمى ، إما لآفة أدركته ، أو لموت حل به ، وفى أمثال هؤلاء جاء قوله سبحانه : « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها[1] » ، « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون[2] » .

وقد اعتبر الله سبحانه — وهو الاعتبار الحق — أن هذا الكائن هو كل شىء فى الإنسان ، وأن نظر هذا الكائن هو النظر الحق ، فإذا أصابته آفة واحتجب عنه نور العبرة فهو أعمى ، ولن ينفعه حينئذ أن يكون بصره العادى أقوى الأبصار جميعاً : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . . . وكذلك سمع هذا الكائن هو السمع الحق ؛ أما الأذن الأخرى التى ترى أمثالها مركباً على رأس كل دابة فلا اعتبار لها فى تدبر الهدى ، وقد أسقطها الله سبحانه من حساب هذا الباب ، ولم يحدث لها ذكراً فيه كأنها شىء غير موجود ؛ وإنك لتقرأ ما جاء فى كلامه عن الهدى ، فلا ترى السمع إلا سمع القلب وحده ، ولا ترى الحياة إلا حياة هذا الكائن المعنوى ؛ وبدونهما فلا سمع للمرء ولا حياة ، ولا استجابة لما يتردد حوله من كلم طيب : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون[3] » .

* * *

وللانسان منطق قائم على ما بينه وبين هذا الكون المادى من علاقات ومشاهدات وتجارب . . . أو قل : إن فى الإنسان قوة عاقلة فيها سر التجاوب مع الأشياء الماثلة لحواسنا فى هذا الكون ، فنحن نرى شخوصها ، ونسمع أصواتها ، ونشم روائحها ونذوق طعومها ، ونميز ملمسها... وتقوم تلك القوة العاقلة — تبعا لتوالى الزمن ومرور التجارب — بإدراك تلك المسموعات والمرئيات والمشمومات والمطعومات والملموسات ، وعلاقة بعضها ببعض ، وعلى أساس ذلك كله تقوم خبرة العقل وأحكامه على الأشياء ، فيحكم — مثلا — بأن الكل أكبر من الجزء ، وأن الواحد نصف الاثنين ، وأن النقيضين لا يجتمعان ، ويحكم بأن الحرارة تمدد بعض الأجسام ، وأن الجسم إذا طفا على وجه الماء فإنه يكون مدفوعا من أسفل إلى أعلى بقوة تساوى وزن الماء المزاح . . الخ

---

(١) الأنعام — ٢٥ (٢) الأعراف — ١٩٨ (٣) الأنعام — ٣٦

أقول : للانسان قوة مدركة يقع إدراكها على أشياء هذا الكون المادى ، وله مع ذلك قوة مدركة أخرى تهبها له موهبته الروحية الجليلة ، ولا تختص تلك الموهبة بإدراك صور الأشياء الحسية فى العالم المادى ، بل بإدراك الأمور المعنوية التى ليست من طبيعة المادة . . فالخير والشر . . والحسن والقبيح . . والمعروف والمنكر . . والفضيلة والرذيلة . . والحق والباطل ، كل أولئك — وما ماثلها — أمور معنوية لا يدرك لها الحس صورة ولا كنها ، بل يدركها ذلك « العقل الروحى » الذى تهبه له موهبته الروحية . . . وقد يرى الرجل المؤمن — أى الرجل الراقى فى إنسانيته — منظراً من المناظر ، فيحكم بعقله المنطق بأن هذا الشىء طويل وهذا الآخر قصير ، وذاك اللون أبيض وذاك الآخر أسمر ، ويدرك موقع كل شىء بالنسبة للآخر ، فهذا فوق وهذا تحت ، وهذا إلى اليمين وذاك إلى الشمال إلى آخر ما هو من اختصاص العقل القائم على أوضاع المادة وخواصها . . . وفى هذا المنظر نفسه قد يرى الرجل المؤمن بعقله الروحى منكراً تجب إزالته أو شراً يتقبض منه . . وقد يرى فضيلة تبتسم لها سريرته أو حقاً لا يملك نفسه من مؤازرته وتأييده ، أو غير ذلك من الأمور المعنوية التى لا تقدر قيمتها بما لها من حجم أو سعر ، وإنما تقدر بموقعها من المثل العليا .

والإنسان يسعى لجلب رزقه العادى ، ويستعين فى ذلك بعقله الذى يدرك خواص الأشياء وسبل الانتفاع بها . . وله إلى جانب هذا الزاد زاد آخر لابد منه لحياة كائنة الروحى ؛ وسبيل ذلك الزاد هو العقل الروحى الذى يسعى فى آفاق المعنويات وينتقى لصاحبه ما فى ذراها العلا من أطايب الحقائق التى تعين على ذكر الله وحسن معرفته وخشيته ، وهو سبحانه يقول : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب[1] » وقد نعى سبحانه على أقوام إعراضهم عن الحق وما لهم فيه من رزق طيب : « إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ؟ »[2]. ولقد كان عمر يحب الحياة لا ليملأ معدته بمتاعها بل ليسعد معدته الروحية بما ينتقى لها من أطايب الزاد ويقول : « لولا ثلاث لما أحببت البقاء : أن أدبر الخيل لأمة محمد تغزو بها فى

(١) البقرة — ١٥٧ (٢) الواقعة — ٧٧ : ٨٣

سبيل الله ، وأن أكابد التهجد فى جوف الليل ، وأن أجالس أقواما ينتقون أطايب القول كما ينتقى الناس أطايب التمر [١] »

والعقل الأول يكسب علمه وأحكامه عن طريق الحواس المتصلة بعالم المادة ؛ ولولا تلك الحواس لظل المرء أعمى لا يبصر ، أصم لا يسمع ، ومعطلا لا يشم ولا يذوق ولا يميز الملموسات ، ولظلت خزانة عقله — تبعاً لذلك — خالية من التجارب والمعارف والعلوم ؛ والله سبحانه يقرر تلك الحقيقة إذ يقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون »[٢] .

والعقل الروحى يكسب علمه وأحكامه عن طريق الحواس الباطنة المركزة فى القلب من سمع وبصر وشم وغيره . . . وعلمه هو العلم الحق . . وهو غير العلم الأول .

العلم الأول منطق آلى جاف خالٍ من العاطفة ، لأن أحكامه قائمة على ملاحظة ظواهر الماديات البحته .. أما هذا العلم فأحكامه دائرة حول ملاحظة المعنويات وإدراك الجانب الروحى فى كل ما حولنا .. ليس منطقا خالصا ، ولا وجدانا صرفا .. فيه من المنطق إدراكه لقيم المعنويات وتمييزه بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام .. وفيه من الوجدان حبه للحق والغيرة على حرمته ؛ وبغضه للباطل والثورة على معالمه .. وذلك هو العلم الحق ، لأنه مجموع العبر التى نستخلصها من كل شىء ، وتزيدنا معرفة بالله سبحانه .. فإذا كان هذا العلم قائماً على المنطق المعنوى وحده بلا وجدان ، فهو أحكام ميتة لا تنهض صاحبها إلى فضيلة ، بل لعل صاحبها يكون من أزهد الناس فى الفضائل على نحو ما نرى فى حياتنا العامة من جمهرة المثقفين ثقافة نظرية .. وإذا كان عاطفة بلا منطق ، أى بلا فقه مميز لمواضع الخير والشر ، والضرر والنفع ؛ فهو قوة ضائعة ، تضر أكثر مما تنفع ، وقد تضر صاحبها أول ما تضر ، ولأمر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

***

وهذه حقائق تحتاج إلى بيان وتفصيل ، ولكننا لسنا بصدد البيان والتفصيل ، بل بصدد بيان الملامح أو المعالم التى نعرف بها أن للسر الروحى فى الإنسان آثار واقعية تدل عليه ، وملكات وحواس تميز خصائصه وتشير إلى وظيفته . . .

---

(١) مدارك السالكين الجزء الثانى ص ١٧٥ (٢) النحل — ٨٧

وقد حرصنا على المقارنة بين الكائن المادى والكائن الروحى ، والمقابلة بين ما لكل منهما من سمع وبصر وحواس ، وعقل وعلم ، وقدرة على العمل وإحداث الأثر الواقعى ، ليكون ذلك بمثابة نقطة الارتكاز التى نأوى إليها ونحن نرتاد هذا الأفق الخطير من آفاق الإنسان ..

فللانسان وجودان : وجود مادى يسعى به فى عالم المادة ، ووجود روحى يسعى به فى السماء .. ولا نقصد بالسماء الكواكب والنجوم وذلك اللون الأزرق الذى يعلونا ، وإنما نقصد الأفق الخفى الذى يعلو عالمنا هذا المادى ، ونسميه ما وراء المادة ، أو ما وراء الطبيعة ، ونحسب أنه هو المراد حين يذكر فى مثل قوله سبحانه : « وفى السماء رزقكم وما توعدون (١) » فتلك السماء ، أو ذلك الأفق الأعلى ، الذى أعد الله لنا فيه أرزاقنا وكل ما وعدنا ، هو المجال الروحى الذى يسعى فيه الإنسان بوجوده الروحى ومواهبه الروحية .

ولقد تكلمنا بعض الشيء عن وجودنا الروحى وما له من مواهب وملكات ، وعن وجودنا المادى وما له من مواهب وملكات ؛ وتبين أنه لا سبيل إلى إدراك الوجود الأول بالحواس العادية كما يدرك الوجود الآخر ، فذلك غير هذا . . . وكذلك الشأن إذا رحنا نقابل بين المجال الذى يسعى فيه الوجود المادى ، والمجال الذى يسعى فيه الوجود الروحى . . . فالمجال الأول مقيس بأقيسة الزمان والمكان ، مضبوط بالشواهد التى تحصى آفاقه وتميز معالمه ؛ والسعى فيه مقدور بخطوات الأرجل ، وحركات الأيدى ، وما ينطق اللسان من كلمة . . . أما المجال الآخر فليس له ضوابط من زمان أو مكان ؛ فالصدق الذى كنا نتكلم عنه منذ حين — مثلا — لا يسوغ فى الذهن أن نقسمه إلى أربع وعشرين ساعة ، ولا إلى ليل ونهار ، ولا إلى شروق وغروب ، ولا أن نقول إن فلانا قطع اليوم ثلاثة فراسخ من الصدق ، وفلان قطع أربعة ؛ وكذلك عالمنا هذا الروحى لا زمان فيه ولا مكان ، والسعى فيه مقدور بإشراقة الإخلاص فى القلب لا بحركة يحدثها اللسان أو القدم أو اليد ! !

ولا نحسب إنسانا إلا وقد جرب هذه الإشراقة التى يلتفت فيها القلب بإخلاص إلى الله فى لحظة من لحظات الصفاء يعلن بها إلى مولاه — من غير صوت ولا حرف — أنه محتاج إلى فضله مفتقر إلى رحمته ؛ تلك الإشراقة التى تحدث بالقلب فإذا هو هين لين منكسر لله ، ليست زمانا ولا مكانا ولا حركة ، وإنما هى سر خفى يمثل طرفاً من سعى الإنسان فى مجاله الروحى ! !

(١) الذاريات — ٢٢

سر ليس له إشراق المصابيح ، وإن كان نور حقيقته أبهر من وضح الشمس .. وليس له خطو يقطع به المسافات ، وإن كان يطوى ما بين الأرض والسماء فى أقل من طرفة العين ... وليس له بيان مسموع ، وإن كان له حنين حول عرش الله يفاخر الله به الملائكة ... وليس له يد يسخر بها ما يريد ، وإن كان يقبض على سنن الله فإذا هى أطوع له من البنان ، وأقرب إليه بالإجابة من كل ما تحتويه اليد ، « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم[1] » ، « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون[2] » .

بهذا السر يسعى الإنسان فى السماء ، أو فيما وراء الطبيعة لتحصيل ما له عند الله من رزق ... !

(يتبع)

يا جند الله !

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف ؛ وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ؛ واكتشفوا الحقائق فى أضواء الخيال الزاهية البراقة ؛ ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هى منكم ببعيد .

حسن البنا

---

(١) غافر — ٦٠ . (٢) البقرة — ١٨٦ .

مِن علوم السُّنّة

في البيوع والكسب والمعاش وما يتعلق بالتجارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

(٤)

باب ما جاء في كسب الحجام والإماء والقصاب والصائغ وغير ذلك

١ — عن رَافِعِ بن رِفَاعَةَ رضى الله عنه قال : « نهانا نبيُّ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم عن كَسْبِ الحجَّام ، وأمرنا أن نُطْعِمَه نَواضِحَنا[١] ، ونهانا عن كسب الإماءِ إلاَّ ما عَمِلَتْ بيدِها ، وقال هكذا بأصابعِه نَحْوَ الخبْزِ[٢] وَالْغَزْلِ والنَّفْشِ »

٢ — عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « نهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كسب الإماء[٣] » .

٣ — وعنه أيضا قال : « نهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كسب الحجَّام ، وَكَسْبِ البَغِيِّ ، وثمن الكلبِ ، قال وَعَسْبِ الفحلِ[٤] » (وقال أبو هريرة هذه من كيسى[٥]) .

٤ — عن رَافِع بن خديج رضى الله عنه أن نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « شَرُّ الكَسْبِ ثَمَنُ الْكَلْبِ ، وَكَسْبُ الحجَّام ، وَمَهْرُ البَغِيِّ[٦] » .

٥ — وعنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثمنُ الكلب خبيث ، ومهرُ البغىِّ خبيث ، وكسبُ الحجام خبيث » .

---

(١) جمع ناضح وهو اسم للبعير والبقرة التى ينضح عليها الماء من البئر أو النهر .

(٢) عجن العجين وخبزه .

(٣) يعنى البغايا على نحو ما كانوا فى الجاهلية .

(٤) عسب الفحل : ماؤه ، والفحل هو الذكر فى كل حيوان .

(٥) يريد أن (عسب الفحل) لم تكن فى هذا الحديث ، وإنما أتى بها زيادة من رواية أخرى

(٦) ما تأخذه على الزنا ، سماه مهرا توسعا .

٦ — عن يحي بن أبي سُلَيم قال : سمعت عَبايَة بن رفاعة بن رافع بن خديج يحدّث أن جدّه حين مات ترك جارية وناضِحا وغلاما حجاما وأرضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الجارية فنهى عن كسبها ، قال شعبة مخافة أن تبغى ، وقال ما أصابَ الحجّامُ فاعْلِفهُ الناضح ، وقال فى الأرض ازرعها أو ذرها .

٧ — عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن كسْبِ الحجام فقال : « اعْلِفهُ ناضِحَكَ » .

٨ — عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « قد أعطيتُ خالتى (١) غلاما وأنا أرجو أن يبارك الله لها فيه ، وقد نهيتها أن تجعله حجّاما أو قصّابا (٢) أو صائغا » .

٩ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن أكْذَبَ النّاسِ الصوّاغُون والصبّاغون (٣) »

١٠ — وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أكْذَبُ الناس الصنّاع » .

١١ — عن حرام بن ساعدة بن مُحيِّصَه بن مسعود قال : كان له (٤) غلام حجّام يقال له أبو طَيْبَة يَكْسِبُ كسباً كثيراً ، فلما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كسب الحجام استرخص (٥) رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه فأبى ، فلم يزل يكلمه فيه ويذكر له الحاجة حتى قال له : « لِتَلْقِ كسْبَه فى بطن ناضحك »

١٢ — عن محمد بن سهل بن أبى حَثْمَه عن مُحيِّصَة بن مسعود الأنصارى رضى الله عنه أنه كان له غلام حجام يقال له نافع (٦) أبو طَيْبَة فانطلق إلى رسول الله

(١) هى فاختة بنت عمر ، كما صرح بذلك فى حديث جابر عند الطبرانى
(٢) أى جزاراً وقد نهى عن الجزارة والحجامة احتراسا من النجاسة .
(٣) الصواغون : صاغة الحلى ؛ والصباغون : صباغو الثياب وهم يمطلون بالمواعيد الكاذبة .
(٤) أى المحيصة بن مسعود .
(٥) أى طلب من رسول الله أن يرخص له فى الانتفاع بكسب غلامه الحجام .
(٦) فى هذه الرواية صرح باسم الغلام .

صلى الله عليه وآله وسلم يسأله عن خَرَاجه[٧] ، فقال : «لا تقربه» ، فرَدَّه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال . « اعلف به الناضح ، واجعله فى كِرْشِهِ »

١٣ — عن عَوْن بن أبى جُحَيْفَةَ عن أبيه (رضى الله عنه) أنه اشترى غلاما حجّاما ، فأمر بمحَاجِمِه فكُسِّرَت ، فقلت له : أتكسرها قال : نعم ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن ثمن الدّم[١] ، وثمن الكلب ، وكسب البَغِيِّ ، ولَعَنَ آكلَ الربا ومُوكِله[٢] والواشمة والمستوشمة ، ولعن المُصَوِّر[٣]

١٤ — عن على رضى الله عنه قال : احْتَجَمَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمرنى أن أعْطِيَ الحجّام[٤] أجره .

من الحِكَم

١ — « من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله تعالى فى البدايات » .

٢ — « تشوُّفك إلى ما بَطَنَ فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ماحُجِبَ عنك من الغيوب » .

ابن عطاء

(٧) أى ما يتقاضاه فى الأجرة على عمله .
(١) أى أجرة الحجامة وأطلق عليه الثمن تجوزا .
(٢) أى الآخذ والمعطى .
(٣) أى الذى يصور الحيوان لا الشجر فإن الفتنة فيه أعظم .
(٤) سيأتى بيان أجرة الحجام مفصلا فى كتاب الإجارة .

غربة الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ ـ روى مسلم عن أبى هريرة مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » ، وفى رواية الترمذى : « فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس » ولعل هذا الحديث عندما تحدث به النبى صلى الله عليه وسلم بين صحابته وقع منهم موقع الغرابة ؛ لأن شأن الإسلام كان فى نماء ، وكانت شمسه فى إشراق ، وقد امتلأت قلوبهم بنوره ، واستأنست نفوسهم بهدايته ، وأشربوا حبه . والإنسان يقبل من الأمور ويدرك منها ماله مجاوبة من نفسه ومشاركة من وجدانه وحسه ، ولكنهم مع استغرابهم صدقوه وآمنوا به ؛ لأنه نبوءة من لا ينطق عن الهوى وهو وحى يوحى ، فهو كلام أصدق الصادقين ، وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

ولكن ما كان غريباً على قلوب الصحابة وإن كان مصدَّقا ، نراه نحن اليوم ونحس به ، فنرى بأعيننا قومنا يجهرون بالإسلام ولا يعملون به ، ويقولون إنهم يؤمنون بالكتاب ولا يقيمون شريعته ، ويقرون بالسنة وصدْق النبى ولكن يجافونها بأعمالهم ؛ فالحدود معطلة ، والربا مأكول ، والقمار قد تغشى الجماعة الإسلامية حتى صار أمراً مألوفا ، والشراب الحرام لم يبق منكراً بل صار معروفا ، وحق الفقير فى مال الغنى ضائع ؛ ثم شاع الظلم وضعف صوت العدل ، حتى لقد عد المنادى به ثائراً أو هاجرا للجماعة ، وكأن الاجتماع لا يكون إلا على ظلم ، ولا يكون على العدل ، ولقد أصبحت كلمة الحق أمام سلطان جائر خروجا وتمردا كأن إقرار الظلم هو الطاعة ، والمناداة بالعدل هى الخروج على الجماعة ؛

بل لقد هُزِّعت العبادات ، فأصبحت الصلاة عادة لا عبادة ـ إن كانوا يصلون ـ وانتهكت حرمات رمضان جهاراً نهارا ، وفقد الحج معناه ؛ ولم يدرك الحجيج لبه ومغزاه .

٢ ـ ولم يقتصر الأمر على هجر الدين ومعانيه هجراً غير جميل ، فلم يترك الناس أوامره ونواهيه الصريحة فقط ، بل أخذوا يتهجمون على حقائقه ، ويفتنون أنفسهم

والناس فى دقائقه ، فهم يعطلون الزكاة ويلتمسون المعاذير فى تركها ، ويعطلون الحدود ويلتمسون أوهى الأسباب لتعطيلها ، ويقرون الظلم ويدعون إلى تأييد الظالمين ، ويدّعون أن ذلك من طاعة أولياء الأمر ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهكذا ضلت الأفهام ، وفتنت العقول ، وجاهر الناس بالعصيان ، ووجد من يسوغه لهم ، أو على الأقل يسهله عليهم ، ثم وجدنا أولئك الذين أحاطت بهم الخطايا من كل جانب يتأولون نصوص القرآن ليبرروا بعض الآثام ، فوجدنا بعض رجال المال ومعهم بعض المتفقهين ، أو المتفيهقين يؤولون آيات الربا بغير حجة من السنة ، ولا سلطان من الدين ليحلوا الربا القائم . . . وهكذا لم يقتصروا على الترك بل تعدوا الحدود ، وتجاوزوا أقدارهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن هذه هى الفتنة حقاً ، ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ، وتؤخذ سنة يجرى الناس عليها ، فإذا غير منها شىء قيل تركت سنة » قال ابن مسعود فقال له قائل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ، قال : إذا كثر قراؤكم ، وقل فقهاؤكم ، وكثرت أموالكم ، وقل أمناؤكم ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة ، وتُفُقِّه لغير الدين » .

هذا قول ذلك الصحابى الكريم فى وقت ابتدأ فيه بعض فتن المسلمين ، وكأنه يصف عصرنا ، وقد طمّ سيل الشر ، وأصبحت الفتنة عن الدين سنة ، وصاروا يتأولون لكل عصيان .

٣ — ولو قيل إننا فى عصر جاهلى لكان القول صدقاً ، ولو قيل إننا لا نأخذ من الإسلام إلا اسمه لكان القول صدقا ، ولكن كتاب الله بين ظهرانينا نقرؤه صباح مساء ، ونستمع إلى قراءته فى كل مكان وزمان ؛ فهل لنا أن نلبى النداء ونجيب الدعاء !

إن الدعوة إلى الرجوع إلى هدى القرآن تحتاج إلى أولى العزم من الرجال ، وأهل الإيمان الذين يتقدمون الصفوف ، وإن الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده ، وحياطته لدينه ، وحفظه لكتابه يبعث فى كل جيل من يرشد ويهدى ، ويدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد روى الإمام أحمد فى مسنده : أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة رجلا يجدد لها أمر دينها : أى يعود به إلى حياته الأولى وهو غض قوى ، فيصير جديداً على الناس بعد أن ضلوا ، وحسبوا الفتنة

سنة ،والآثام عرفا معروفا ، وفرضوها على القرآن لتحكم عليه ، لا ليحكم عليها ؛ ولقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ظاهرا مشهورا ، أو خفيا مغمورا ؛ حتى لا تضيع بينات الله » .

ولقد وجدنا والحمد لله فى عصرنا دعاة قد احتسبوا أنفسهم لله ، ودعوا بدعاية الله وتنادوا بحكم القرآن وشريعة الديان ؛ ولكنهم وجدوا قوما أركستهم المعاصى ، ودرّنت قلوبهم الخطايا ، وهجروا دين الله عملا ، وإن ظنوا أنهم مؤمنون عقلا ؛ وقد تكاثفت الأزمان على أحوالهم ، حتى ظنوا ما هم عليه دينا ، أو يسوغه الدين ، ونخشى أن نقول إنهم كانوا فى ادعائهم الأخذ بشريعة خاتم النبيين كقول مشركى العرب فى إبان التنزيل : إنهم على دين إبراهيم أبى النبيين .

٤ — مهمة الدعاة إذن ليست ميسرة ولا سهلة ، ولكن هل نقنط من روح الله ! إنه كلما عظم الشر كانت المهمة على الدعاة أعظم ، وكلما شاعت الرذيلة تضاعفت الهمم لمقاومتها ، وكان العبء على الدعاة جسيما جليلا خطيرا ، وأول واجب عليهم أن يعرفوا من أين يأتون إلى القلوب التى قست فى المعاصى ، ودرنها الشر ، واستمرأت مخالفة كتاب الله ؛ حتى ظنت أن ما هى عليه هو الدين ، وحسبوا الفتنة هى السنة كما قال ابن مسعود ؛ فإن معرفة القلوب المريضة وموضع دائها ، ثم معرفة أنسب دواء لها ، هو مهمة الداعى الرشيد القوى الأمين ؛ وإن الرشيد كالطبيب عليه أن يعرف حال مريضه فى كل أحواله وعامة أطواره فيكون الدواء نافعا ، والعلاج ناجعا ؛ وليجتث الداء من أصله ؛ ومرضى القلوب كمرضى الإجسام وانحراف العقول كانحراف الأجساد ؛ ولا بد من التدرج فى العلاج ، وتسهيل قبول الدواء ومزجه بما يُسَوِّغه ؛ حتى يسيغه المريض . ورحم الله على بن أبى طالب فقد كان يقول فيما ينبغى اتباعه عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « إن للقلوب شهوات وإقبالا وإدبارا ، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها ؛ فإن القلب إذا أكره عمى » .

٥ — وإن من أعظم الدواء الناجع فى معالجة النفوس الشاردة والأهواء المستحكمة التدرج معهم فى العمل ، وتتبع الكبائر كبيرة كبيرة ، حتى تجتث كلها من أصلها ، فالإفراد يمكّن الداعى من اقتناص أجزاء الشر واحدة واحدة ، حتى يقضى عليها كلها فى نهاية المعركة ، وإن مثل الداعى المرشد عند محاربة الرذائل كمثل قائد جيش المؤمنين ، قد تألبت عليه كل جيوش الرذيلة من كل جانب ؛ فإن حاربها جميعاً فى كل الميادين ،

توزعت الميادينُ قواه ، وبددتها ، أو انتصرت إحداها عليه ؛ وحسب الرذيلة أن تنتصر فى إحدى ميادينها لِتكتَسِب فى كل الميادين .

إن الدعوة والإرشاد تحتاج إلى سياسة فاضلة ، كما تحتاج الأمم فى أمورها إلى سياسة فاضلة ، تلين فى جانب وتشتد فى جانب ، حتى تقبض على الأمر كله فتسوسه بسياسة الله العلى القدير ؛ أو بعبارة أدق تنفذ بسهام الحق فى جانب ، وتُغضى مؤقتا فى جانب آخر حتى تكون الكلمة العليا لله ولرسوله فى كل النواحى ، وفى كل شعب الحياة .

٦ — وقد يقول قائل يا هذا أو تريد أن يُتّخذ كتاب الله عضين . يعمل ببعضه ويترك بعضه ، وأن نكون كمن يؤمن ببعضه ويكفر ببعضه ! ! معاذ الله أن نكون من ذلك الفريق ! إنا نؤمن بالكتاب كله ، وبالدين كله ، ونودُّ بجدع الأنوف أن تكون الكلمة كلها لله سبحانه ولدينه الحنيف ، وأن تكون السيطرة كلها لدين رب العالمين ، ولكن وجدنا أن سياسة الدعوة فى ذلك العصر الذى صارت البدعة فيه سنة توجب أن نأخذ الناس بشىء من الرفق القوى بأن نتجه إلى أقبح الشرور واحدا واحدا فنحاربها ، ثم ننزل إلى من دونها حتى نجىء على الفساد كله ؛ وليس معنى ذلك أن نقول عن المتروك إلى حينه إنه خير ، بل نقول دائماً إنه شر ، ونعلن حكم الله فى كل شىء ، وإلا كنا كاتمين لشرع الله مخفين له ! إنما نبتدىء عند الدعوة العملية بالتدرج من القبيح الواضح القبح إلى من دونه ، حتى يكون أمر الله سائداً قائماً فى الجميع ؛ وإن الأمر ليس فيه خطر على الدين ، فالفضائل يستمسك بعضها بعرا بعض ، والرذائل تتفرع مخارِفها بعضها على بعض ؛ فمن أخذ بحبل فضيلة أخذاً قوياً اجتذبها جميعاً ، ومن سد باب رذيلة سداً محكما فقد قطع السبيل على كثير من الرذائل ؛ ولسنا فى ذلك القول مبتدعين ، ولكنا متبعون لهدى محمد فى موعظة الناس وإرشادهم ، فقد روى أن رجلا كان يزنى ويسرق ويشرب الخمر ، فجاء يشكو إلى الرسول حاله ، ويبين صعوبة التوبة عليه ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم بالصدق فقط ؛ فكان الصدق وحده سبيل هدايته وتوبته ، فتاب الله عليه وكان من الصديقين . وانظر إليه صلى الله عليه وسلم فى حاله مع أعرابى أساء القول إليه ، فما زال به النبى رفيقا ، حتى قال قولا حسنا ، ثم قال عليه السلام فى سياسته فى الدعوة متمثلة فى أمر ذلك الأعرابى الذى همّ بعض الصحابة بقتله : «مثلى ومثل هذا الرجل مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها

فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ؛ وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

٧ — هذه هى الدعوة القوية الرفيقة الرشيدة نقتدى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم ونكون كصاحب الناقة نستدرجها ونأخذها على رفقها وهينها ، حتى يستولى الدين على القلوب والجوارح والأعمال ، ويكون الأمر كله لله . وإن هذا فقه الدعوة ؛ فلكل أمر فقه وعلم ينفذ إلى لبابه ، وبه يصل إلى غايته ؛ ولقد قال على رضى الله عنه فى سياسة الحق : « الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره . إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا فى علم لا فهم فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها » .

وعلى الداعى أن يستنكر المعاصى كلها ، لا فرق بين صغير وكبير ، ولا حقير وخطير ؛ فإن محقرات الذنوب ذرائع إلى كبيرها ، ولكن على من يسوس الرعية ، ويقيمها على دعائم الحق أن يكتفى من العمل الملزم الحتمى بما تطيقه الجماعة التى سادها الشر ، وسيطر على نفوسها ومداركها وعقولها ، ويبتدىء بالأمر الواضح البطلان ثم الذى يليه حتى يستقيم الأمر كله ، ليُظهر قبح كل ما هو قبيح فى الشرع ، ولكن لا يحمل الناس بقوة السلطان إلا على أشدها قبحاً ثم ما يليه متدرجا حتى يصل إلى الغاية القصوى من أوامر الله ونواهيه .

٨ — إن الرفق فى العمل سبيل الرشاد ، وطريق السداد فى مثل هذه الظلمة الحالكة ، فمن يسير فى طريق مظلم حاملا المصباح لا يسرع حتى لا يتقحم فيما لا يحسن ؛ وحتى لا ينطفىء المصباح بالعواصف الهوجاء ، بل يسير مسدداً خطواته فى هنية ورفق ، ومحافظاً على المصباح حتى لا ينطفىء ؛ فإن السير على هذا النحو يجعل الداعى إلى الخير يدأب ، ويسير من نجاح إلى نجاح ، ويعمل ولا يكل ، ويصل إلى الغاية ، وإن طال الزمان ، وقلّ العمل فى بعض الأحوال ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا وبشروا ؛ فإنه لن يُدخل الجنة أحداً عَمَلُه ، واعملوا فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » .

فليعمل الدعاة فى رفق وأناة ، وليأخذوا الناس بالحق إلى الحق ، ولا يعنتوهم فإننا قد ورثنا أزمانا كان الشر فيها مستحكما ، والرذائل مسيطرة ؛ لجلجَ فيها الباطل ، وخفت فيها صوت الحق ، حتى ظننا الظنون ، وحتى استيئسنا ووقع فى نفوسنا أن

الرسل قد كذبوا ، ولا طريق لحمل الناس على التصديق . وإن الدعاة إلى الحق صاروا كالقابضين على الجمر ، وكان الشح مطاعا والهوى متبعا ، وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياما ، الصابر فيهن كالقابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم »

والآن والحمد لله قد تفتحت الآذان قليلا للاستماع لهدى القرآن بعد أن كان الهوى متبعا ، والشح مطاعا ؛ فلنوسع الباب برفق ، ولنسر فيه بأناة ، ولنصبر ولنصابر ، ولنجاهد ، ولنرابط ، والله ولى المتقين .

فتيان صدق . . .

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم ... على سر بعض غير أنى جماعها
يظلون فى الأرض الفضاء وسرهم ... إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها
لكل امرئ شعب من القلب فارغ ... وموضع نجوى لا يرام اطلاعها

الدستور الإسلامي

في نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال

للأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربي

الأستاذ بجامعة القاهرة

(١)

مقدمة

خواطر وذكريات

مشهد رهيب يطالعنا اليوم في هذه الكرة الأرضية : كل من يمشي عليها من بني الإنسان يدرك أنه سائر بخطى حثيثة إلى هاوية لا مخرج منها ، إلى فناء وشيك ودمار شامل.

الشعوب ترتعد فرائصها هلعاً من الكارثة الآتية . وقادة الرأي فيها في حيرة مدلهمة بين المذاهب الفكرية المتعارضة ، والفلسفات السياسية المتناقضة (ideologies) ، ولا يرون مخرجاً من هذه الظلمات إلا ما سوف يسفر عنه الصراع المرتقب .

كل هذا الهلع يسيطر على جو الكرة الأرضية ؛ وفيها المذهب الفذ ، والطريق الأوحد للنجاة والسلام في الأرض ، مستوراً في غلف مقفلة ، لا يعيه إلا القليل من أتباعه ، وأما من عداهم من سكان الأرض فلم يسمعوا عنه قليلا أو كثيراً .

ذلك هو الدستور العالمي الذي أوحى الله به إلى خاتم النبيين تبياناً للناس ، وهداية للبشر ، ورحمة للعالمين .

هذا الدستور الإسلامي في نظم الحكم والاقتصاد والمال ؛ بل في الحياة الخاصة لكل فرد ، وفي الحياة الاجتماعية لكل مجتمع ، وفي الصلات بين شعوب الأرض جميعاً ، في كل زمان ومكان ، هذا الدستور قائم منذ أربعة عشر قرناً يدعو الشعوب الإسلامية إلى التزامه بعد أن هجرته أكثر من ألف سنة ، ويدعو كافة الأمم إلى الاهتداء بأحكامه ، والاسترشاد بأصوله ؛ إن أرادت النجاة ، وطمعت في استقرار السلام والرخاء في هذه الأرض .

والدول الكبرى التي تتنازع اليوم مقاليد السلطان في هذه الأرض ، وتوشك أن تشتبك في صراع لا يُبقي ولا يذر ، لو رجعت إلى التاريخ ، واستصدقته ؛ لعلمت أن

مطلع نهضتها كان قبساً من تعاليم الإسلام : انتقل إليها فى غلاف الثقافة العربية ؛ فبدد ظلمات القرون الوسطى ، وفتح لعلمائها مغاليق الكون ، ثم تغلبت النزعات المادية ، ونسوا من الإسلام معاييره الروحية ، فتقدمت حضارتهم فى جانبها المادى ، وتضعضعت فى جانبها الروحى ؛ فانقلبت شراً مستطيراً على الإنسانية .

أين هـــذا الدستور الإسلامى الذى نرى فيه منقذ الإنسانية مما يهددها من فناء شامل ؟ .

إن أصوله الخالدة قد وضعها القرآن ، وفصّلتها السنة ، وطبقها العمل فى صدر الإسلام .

ولكن الشعوب الإسلامية التى أعقبت هذا الصدر الأول نسيت بعض ما ذكّرت به ، وضعف استمساكها بكثير من هذه الأصول ، وغفلت عن خطرها فى صون كيان المجتمع ؛ فانحرفت عنها شيئاً فشيئاً حتى نبذتها ظهريا — وإن حرصت على استبقاء مظهر الإسلام دون جوهره — فلم تلبث أن دبّ فيها دبيب الانحلال ، وأغرت بأراضيها كل ناهب وغاصب . وأذاقها الله جزاء ما اكتسبت لباس الذل والفقر ؛ فأصبحت وصمة فى جبين الإسلام ، وأسوأ داعية للاسلام ، وأكبر منفّر من تعاليم الإسلام .

فهلا بعثنا هذا الدستور الإسلامى مرة أخرى ؛ ليبعث الشعوب الإسلامية بعثاً جديداً يتحقق به وعد الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وهلا نشرناه على الناس كافة ليأخذ بيد الإنسانية المعذبة إلى مدارج النجاة ؟ .

ذلك ما جال بخاطرى يوم حدثنى الأخ الكريم (الأستاذ سعيد رمضان) فى هذا الموضوع الخطير ، واستحثنى على الكتابة فيه . وقد ساورتنى الشكوك فى كفايتى لهذه المهمة الكبرى ولما أستكمل الأهبة للاضطلاع بها ، ولكن رأيتنى أشرفت على خريف العمر ، ولم يبق متسع للارجاء . وقلت مالى لا أقدم على هذه المحاولة الاجتهادية : أخطىء فيها وأصيب ؛ فينهض أقطاب الفقه الإسلامى لتصويب ما أخطأت فيه ، ولماذا لا أستجديهم من علمهم الزاخر ما يقصر عنه طوق المحـــدود ؛ ومن تبادل الرأى ، وتقليب وجهات النظر ، ومقارعة الحجة بالحجة يخلص لنا دستور إسـلامى شامخ البنيان متين الأركان ، يكون فجر السلام وسبيل النجاة للانسانية المعذبة ؟

ولا بد فى كل عمل من بداية . والعمل العظيم قد يبدأه الرجل الضعيف بداية متواضعة ، ثم تتكاتف الجهود الكبيرة والهمم القوية على إنجازه ، والسير به قدما إلى نهاية مداه .

البداية إذن هى العقبة الأولى ؛ ولعـل مما يشفع لى فى الإقدام على اقتحام هذه العقبة أنى قضيت أكثر حياتى أدرس نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال على مناهج الغربيين وفى جامعاتهم ، ثم توليت تدريس هذه النظم الغربية طوال ربع قرن أو يزيد فى الجامعات المصرية ، وبضع سنين فى كلية الشريعة بالجامعة الأزهرية . ولـكن ثقافتى كانت فى منبتها ثقافة إسلامية ؛ فوجدتنى مسوقا بالرغم منى إلى مقارنة وموازنة بين هذه النظم الغربية وآثارها فى المجتمع الغربى ، وبين الأصول التى جاء بها الإسلام لهداية البشر وآثارها فى المجتمع الإسلامى الأول .

وثبت لى من هذه المقارنة بين الأصول التى تهيمن على النظم الغربية — حتى فى أوضاعها الصالحة — وبين الأصول التى قررها الإسـلام منذ أربعة عشر قرنا أن الإسلام هو واضع الأسس لأحكم هذه الأصول وأكفلها بسعادة البشر ، وأن ما اهتدى إليه الغرب منها ، واقتبسه فى البداية من المصادر الإسلامية إنما هو جزء من كل ، بل هو فروع تتسق أحيانا مع الأصول الإسلامية فتستقيم الأمور ، ولا تتسق فى الغالب فتختل الموازين ، وتضطرب الأمور ، ويشيع الفساد فى الأرض . وما محنة العالم الآن بين المعسكر الشيوعى والمعسكر الرأسمالى ، بين الفلسفتين المتعارضتين ، وما يتوقعه من كوارث ماحقة إلا نتيجة حتمية لخروج هذه الفروع ، وما تمثلها من نظم عن الأصول الإسلامية الصحيحة ، وانحرافها عن الأسس التى فرضها الإسلام .

إذن فلنستخر الله القدير فى جمع شتات هذه الأصول ، فى نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال ، ولنطبقها على احتياجات العصر الذى نعيش فيه ، لنفرع منها أوضاعا تلائم مستوى الحضارة التى نعاصرها فى هذا القرن العشرين ، ولنستخرج منها أجهزة حكومية واقتصادية تـكفل الوفاء بمطالب البشر على الوجه الأعدل والأكمل . هذا مع الحرص الدقيق على سلامة هذه الأصول الخالدة من كل تحريف أو تشويه .

فإذا تمت إقامة هذا البيان الدستورى الشامل — وسيتم بعون الله وبتعاون أقطاب الفقه الإسلامى وعلماء الإسلام فى كل أرض إسـلامية — صار الدستور الذى تلتزمه جميع الشعوب الإسلامية ، وصار رباط الوحدة فى الوطن الإسلامى الموحد ، وصار القدوة التى تحتذيها سائر الأمم ، ومنقذها القوى الأمين فى دور الحيرة والانحلال الذى تتردى الآن فيه .

هذا هدفنا ؛ فليتعاون المسلمون جميعاً على بلوغه ، والله المستعان .

* * *

وتحضرنى الآن بعض الذكريات ، أرى أن أسوقها ختاماً لهذه المقدمة وتدعيماً لهذه الخواطر :

فى سنة ١٩٢٢ — وكنت فى بعثة وزارة العدل إلى جامعة أوكسفورد — قامت فى اتحاد الجامعة مناظرة حامية الوطيس بين مجندى الحكم الديمقراطى وناقديه : أما الفريق الأول فقام يشيد بفضل بريطانيا على العالم فى استحداث النظام البرلمانى وإقامة دعائم الحكم الديمقراطى ، ونددوا بالدكتاتوريات التى تمحق حرية الفرد وكرامته الإنسانية ، وتناولوا بالقدح ماسموه الدكتاتوريات الإسلامية ذات الحكم الأوتقراطى المطلق الذى هوى بشعوبها إلى حضيض الفقر والعجز .

وقام الفريق الثانى يندد بمفاسد الديمقراطية ومايلابسها من نفاق وخداع ، وشرحوا مهزلة النظام البرلمانى الذى يمثل فى ظاهره إرادة الشعب ، وفى باطنه إرادة فئة قليلة استحوذت على النفوذ الأكبر بحكم سيطرتها على مصادر الإنتاج ، وازدادت أموالهم على مر السنين ضخامة وازداد عددهم قلة ؛ حتى احتكروا توجيه الحكومات القائمة بالرغم من جميع أجهزتها الديمقراطية ، وصارت القوة التى يصولون بها — ولا رقابة عليها إلا ضمائر أربابها الدغلة — أداة إفساد للهيئات السياسية بما تنثره من الرشى وما تطلقه من النذر ذات اليمين وذات اليسار ، وأداة إفساد للادارات الحكومية ، وامتد أذاهم إلى الناخبين أنفسهم بحكم سيطرتهم على مراكز توجيه الرأى العام ؛ فأضلوا الشعوب عن كثير من الحقائق ، وحجبوا عنها حقائق أخرى ، وزينوا لها كل باطل وبهتان .

قام الصراع بين الفريقين على هذا النحو ، فوجدت لزاماً علىّ أن أسهم فى هذه المعركة لعلى أكشف لهم وجه الحق فيما فيه يمترون .

فقلت للفريق الأول : لقد افتريتَ على التاريخ مرتين : الأولى عند ماقررت أن بريطانيا كانت منبت الحكم الديمقراطى ومولد النظام البرلمانى ، والثانية إذ زعمت أن الحكم الإسلامى هو حكم دكتاتورى مطلق ؛ أما الحق فهو أن الشرع الإسلامى كان هو المنبع الصافى الأول للحكم الديمقراطى بأكمل معانيه ، وذلك حين كانت بريطانيا فى ظلام القرن السابع الميلادى تتخبط فى غياهب الجهالة البدائية .

ذلك لأن الأديان السماوية كانت — إلى أن جاء الإسلام — تقتصر رسالتها على الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، وتدع رسم نظم الحكم إلى تدبير البشر ، تاركة مالقيصر لقيصر وما لله لله . أما الإسلام — خاتم الأديان — فجاء على خلاف المألوف فى الكتب

السماوية التى سبقته بدعوة صريحة إلى نظام حكومى يجب التقيد به ، ولا فكاك منه ، هو نظام الشورى والحكم الديمقراطى بأتم معانيه ، مدعماً برقابة من الله دائبة ، يستشعرها الكافة : حكاماً ومحكومين ، خمس مرات فى صلواتهم اليومية .

وقلت للفريق الثانى : إن جميع المساوىء التى تنعيها على النظام البرلمانى ، والحكم الديمقراطى قد اجتنبها نظام الحكم الإسلامى فى الأصول التى فرضها القرآن ، وطبقت فى صدر الإسلام . وحسبك أن تعلم أن بعض أنظمة الإسلام — كنظام الزكاة ونظام المواريث — كفيلة بالحيلولة دون تكدس الثروة فى أيدى فئة قليلة . ثم إن التربية الفردية التى فرضها الإسلام على كل مسلم ، ورسم لها وسائل عملية ناجعة ، كفيلة بتحقيق تعاون الطبقات ، وتدعيم التضامن الاجتماعى بينها ، ونشر لواء البر والرحمة على الكافة .

ثم مضيت فى شرح موجز لأصول الدستور الإسلامى التى تنظم حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وحياة البشر كافة ، على أكمل وجه يكفل لهم جميعاً الخير والسلام .

يومئذ تمنيت لو أن بين يدىّ كتاباً منشوراً عن الدستور الإسلامى ، يرد عن نظام الحكم فى الإسلام عادية الجاهلين ، ويفند إفك المفترين ، الذين اتخذوا من النظام القائم يومئذ فى أكثر الأمم الإسلامية حجة على الإسلام .

* * *

وفى سنة ١٩٤١ أتيحت لى فرصة أوسع لتبيان فضل الإسلام على الإنسانية فى نظم الحكم .

وذلك حين نظمت الجامعة الأمريكية بالقاهرة سلسلة من المحاضرات عن الديمقراطية ، وعهدت إلىّ بإلقاء المحاضرة الأولى عن نشأة الديمقراطية ؛ فشرحت لهم — فيما شرحت — كيف استنبط فلاسفة اليونان نواة الفكرة الديمقراطية ، وكيف طبقتها المدن اليونانية القديمة ، فكانوا لا يعترفون بالسيادة إلا للقانون ، والقانون عندهم هو رأى مجموع أهل المدينة . وروما القديمة فى عهدها الملكى وعهدها الجمهورى عرفت فى لجانها الشعبية مبدأ الحكم الديمقراطى إلى أن جاء القياصرة فاستأثروا بالسلطان .

غير أن هذه الديمقراطيات القديمة كانت ذات طابع خاص يُبعد ما بينها وبين الديموقراطية الحقة ، ويُدنيها كل الدنو من النظام الأرستقراطى ؛ لأن الذين كانوا يسهمون فى حكم المدينة وحياتها السياسية هم فقط أقلية ضئيلة من أهل المدينة ، وهم

الذين يتمتعون بحق « المواطن » ، أما من عداهم من أرقاء ينهضون بأعباء الحياة الاقتصادية ، وأحرار لم يصلوا إلى مرتبة « المواطن » فليس لهم أى نصيب فى حكم المدينة . فإذن لم تكن مقاليد الحكم بين جمهور الشعب كما تقضى الديمقراطية الحقة ؛ بل كان لأقلية محدودة من أهل المدينة . وكانت الفكرة التى تسود الأقدمين عن الديمقراطية — كما قال أحد العلماء — هى أن الإنسانية يجب أن تعيش لهذه الأقلية المختارة . وهكذا لم تنهض الحرية فى الأمم القديمة — كما قال (روسو) — إلا على أكتاف العبودية .

ثم كان للكتب السماوية نصيب كبير — ونصيب متدرج — فى التمهيد للديمقراطية . فالكتب السماوية التى سبقت نزول القرآن ، وإن لم تعرض لنظم الحكم ، وتركت ذلك لجهود البشر ، يستحدثون فيه ما يرونه أصلح لأحوالهم الدنيوية ، واكتفت بالدعوة إلى الفضائل الخلقية اللازمة لإسعاد المجتمع البشرى فى هذه الدنيا وفى الآخرة ؛ إلا أن هذه الدعوة فى ذاتها كانت خير تمهيد للديمقراطية .

ذلك لأن للديمقراطية أصولا يجب أن تراعى حتى لا تخرج الديمقراطية عن مدلولها ، ودعائم خلقية هى وحدها التى يقوم عليها الحكم الديمقراطى الصحيح . هذه الأصول والدعائم دعت اليها الديانة المسيحية دعوة صريحة فى دعوتها إلى إقامة العدل والرحمة ، والبر والإحسان ، والمساواة بين البشر رفيعهم ووضيعهم ، قويهم وضعيفهم ، وفى تقريرها — أسوة بسائر الأديان السماوية — أن الإنسان له حياة خالدة بعد هذه الحياة الفانية ، وأن الله المسيطر وحده على هذا الكون قد فرض على الإنسان فى هذه الحياة الدنيا إقامة العدل ونشر الإحسان ، وأخذ عشيرته وجيرته والناس جميعاً بالرحمة والبر . هذه قوانينه العليا التى يجب أن تخضع لها قوانين الدولة ، وتسترشد بها كافة الأحكام الوضعية .

فالمسيحية إذن مهدت البشر للأخذ بالديمقراطية بما ندبتهم إليه من أحكام خلقية وفضائل نفسية ، وبما رفعت من شأن الفرد بإفساح أفق تفكيره ونطاق غاياته من هذه الحياة ؛ وبذلك امتازت عن فلسفة اليونان المادية التى كانت تعنى بصلاح أمر الإنسان فى هذه الحياة فقط ، وكانت لذلك ضيقة النطاق تبعاً لهذا الهدف المحدود .

ذلك كان نصيب المسيحية فى التمهيد للديمقراطية ، وغرس دعائمها فى النفوس . ثم جاءت على الإنسانية فترة سوداء نسى فيها أهل المسيحية فضائل دينهم ، وانحرفوا عن أحكامه ، وشوهوا تعاليمه ، واستعبد الإنسان أخاه الإنسان ، واستعلى فريق على فريق ،

وغاضت الرحمة من النفوس ، ونضب معين البر ، وعم الفساد فى الارض ؛ فأنزل الله القرآن تبيانا للناس وهدى ورحمة للعالمين .

نزل القرآن — آخر كتاب من عند الله — فسجل تلك الفضائل والأحكام الخلقية التى دعت إليها المسيحية ، ثم رسم لها الوسائل العملية الكفيلة بتمكينها فى النفوس ، بما فرضه من عبادات تربط بين الإنسان وربه بغير وسيط أو شفيع ، وتربط بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة برباط وثيق .

ثم خطا بالإنسانية الخطوة الأخيرة ، وأتم ما مهدت له الكتب السماوية من قبل ، فدعا دعوة صريحة إلى نظام حكومى يجب التقيد به .

أصول هذا النظام الجامعة هى أولا : دستور القرآن فيما رسمه من أحكام عامة تنتظم حياة البشر ، ثم فيما قرره من تنصيب أداة تنفيذية تقوم على إنفاذ هذا الدستور القرآنى . قيام هذه الأداة يكون أولا باختيار رئيس الدولة أو الخليفة بالمبايعة أو الانتخاب العام ، ثم تقييد هذا الخليفة فى تصريف شئون الدولة بهذه الأحكام القرآنية العامة ، وتقييده فى التفريع عنها والتفصيل لها طبقاً لحاجات كل زمان ومكان بنظام الشورى — وهو النظام البرلمانى الحديث — ثم فرض الإسلام تلك المبادىء الأساسية التى فى سبيلها انفجر بركان الثورة الفرنسية وثورات أخرى سابقة ولاحقة : مبادىء الحرية والإخاء والمساواة . ثم قرر إلى جانب ذلك تلك الأصول الدستورية التى بدونها يكون النظام البرلمانى اسما على غير مسمى : حرية القول والرأى والنقد — نقد الحكام فى سبيل المصلحة العامة — بل قرر حق النقد إلى حد لما تذهب إليه الشرائع الأوربية فى هذا القرن العشرين ، إلى حد تبرير المقاومة الثائرة لمصلحة العامة : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده (أى بالقوة) فإن لم يستطع فبلسانه (أى بإبلاغ السلطات العامة أو تنبيه الرأى العام) فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . وجواب الأعرابى للخليفة عمر : « لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف » .

ثم نسج على كل هذه الأصول والمبادىء ثوباً طهورا من الأخلاق ليكون وقاية منيعة لهذا البنيان الديمقراطى الرفيع ، الأخلاق التى يجب أن يتمسك بها الأفراد والجماعات ويرفعوها فوق كل زخارف هذه الحياة ومناعمها ، الأخلاق التى هى علة العلل فى الديمقراطيات الحديثة ، ومصدر أزماتها الخانقة ، بل الداء الوبيل الذى ينخر فى هيكلها حتى ليوشك أن ينهار .

هذه المبادئ، والأصول الديمقراطية الحكيمة سادت بالفعل عهداً قصيراً فى صدر الإسلام . وقصر هذه المدة لم يكن ليسمح بترجمة هذه المبادىء العامة إلى أوضاع ماثلة للعيان ، لها إجراءات مفصلة ، ومراسيم مرتبة ، وشعائر مجسمة ، وتقاليد راسخة ، بل بقيت على حالتها الأولى من التعميم والإجمال .

هذا التعميم فى المبادىء والإجمال فيها ، كانت له ميزة مقصودة ، ونتج عنه ضرر غير مقصود . أما الميزة المقصودة فهى أن التعميم الذى لا ينزل إلى التفصيلات الجزئية لا يقيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات ، بل يتركها حرة تقتبس الوضع الحكومى الذى تتوفر فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان ما دامت تسوده الفكرة الديمقراطية بوجه عام . وهذه هى المرونة اللازمة فى المبادىء التى يراد لها الخلود لتكون ملائمة لتطور احتياجات البشر .

أما الضرر غير المقصود الذى نتج عن هذا التعميم فهو أن المبادىء العامة المجردة التى لم تترجم بعد إلى أشكال بارزة ، وأوضاع ماثلة للعيان ، ومعالم قائمة مرتبطة بهذه المبادىء ارتباطاً ذهنيا — ارتباطا لا انفصام له بحيث أن إحداها تذكر أبداً بالأخرى — مثل هذه المبادىء المجردة لا يكون لها سلطان كبير على عقلية الشعب ، بحيث يكون أسهل على بعض الخاصة أن يصرفوهم بالخداع أو بالقوة عن التمسك بها ؛ وهذا ما حصل بالفعل فى الديمقراطية الإسلامية .

فإن الأجيال التى أعقبت الصدر الأول من الإسلام غفلت أو تغافلت عن خطر هذه الأصول الديمقراطية ، وعن ضرورة استنباط القواعد التنفيذية والإجراءات العملية التى تكفل نفاذ هذه الأصول العامة فى كل نواحى سياسة الدولة . وتوالت الأجيال المتعاقبة وهى ذاهلة عن واجبها فى استخراج الأوضاع والأساليب العملية التى تكفل التوفيق بين هذه الأصول العامة واحتياجات كل عصر ؛ فلم تلبث هذه الأصول الديمقراطية لطول الترك أن اندثر خطرها فى وجدان الشعب ، ولحقها من تشويه المعنى وعبث التفسير ما جعلها مطية ذلولا لبغى الطغاة وسحق الحريات .

والمطلع على تاريخ الشرع الإسلامى لا يسعه إلا أن يقرر أن وزر هذا البلاء واقع أولا على نفر من الخاصة استهانوا بالأصول الديمقراطية التى دعا الإسلام إلى إقامتها ، وقلبوا الخلافة إلى أوتقراطية وراثية مطلقة ، وهدموا مبدأ الشورى ومستلزماته ، واستعانوا على ذلك تارة بتغرير الخداع ، وتارة ببطش القوة .

وواقع ثانيا على بعض رجال الفقه الإسلامى الذين لم يكبحوا جماح هذه النزعة الأوتقراطية، وتركوها تسير فى طريقها المخرب ؛ فأكثرهم لم يخصوا هذه الاصول الديمقراطية وما يجب تفريعه عنها من نظم حكومية مفصلة ببعض العناية التى أغدقوها على سائر الأحكام الأخرى كأحكام المعاملات مثلا .

ولقد كان لهم فى الصلاة أسوة حسنة ؛ فإن الصلاة — أولى العبادات — قد فرضها القرآن بنصوص مجملة ، ولكن السنة فصلتها تفصيلا ، ورسمت أوضاعها ، وأقامت شعائرها وأبرزت معالمها ، على نحو يطبع فى الذهن جميع المعانى الروحية التى تهدف إليها الصلاة

كذلك نظام الحكم : فرض القرآن فيه مبدأ الشورى بنصوص مجملة ، وطبقت السنة والخلافة الرشيدة هذا المبدأ تطبيقا كاملا . ولكن كان يجب على فقهاء الإسلام أن يبذلوا جهدا مماثلا فى أن يستخرجوا من هذا المبدأ العام أوضاعا وتفصيلات ومعالم تطبع فى أذهان الشعب الصلة بين مبدأ الشورى وهذه الأوضاع التفصيلية الماثلة للعيان ، وكان يجب عليهم أن يرسموا أجهزة تنفيذية تكفل نفاذ المبدأ العام وتحول دون القضاء عليه أو المساس به ؛ حتى لا يسهل على حاكم أوتقراطى أن يصرف الرعية عن الأصل العام فى نظام الشورى ، على أن تكون هذه الأوضاع والتفصيلات والأجهزة قابلة للتبديل والتحوير بحسب تطور احتياجات كل عصر .

ذلك ما آخذه عليهم : أنهم لم يضعوا تدوينات متجانسة مجتمعة الشمل للدستور الإسلامى ، ولم يرسموا الأجهزة التنفيذية التى تحول دون العدوان عليه ، وتبرز جانبه الروحى فى وجدان الشعوب . وقنعوا بأن أودعوا طى كتبهم الحافلة نبذاً فيه ، متفرقة عارضة ، لا تبرز — وهى على هذا الشتات — صورة قوية متماسكة كاملة للدستور الإسلامى .

ولكن صدى هذه الأصول الإسلامية التى أوحى الله بها إلى نبيه فى رمال الجزيرة العربية لم يذهب سدى ، بل تجاوبت به أجواء أخرى ؛ فبعد بضعة قرون من مجاورة أوروبا للأمم العربية بدأت الدعوة إلى مقاومة طغيان الملوك ، وإلى إقامة نظام الشورى والحكم الديمقراطى تتسرب إلى عقول المفكرين من علماء أوروبا ، ورجال الدين فيها الذين كان كبراؤهم يجيدون اللغة العربية ، ويطلعون على كتب علمائها وفقهائها .

ثم مضيت بعد ذلك فى محاضرتى أؤرخ تطور الفكرة الديمقراطية فى الدول الأوروبية[1] ، وأبين العلل التى انتابتها نتيجة انحرافها عن الأصول الإسلامية الصحيحة .

* * *

(١) محاضرة ألقيت بالجامعة الأمريكية فى يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٤١ ونشرت فى مجلة القانون والاقتصاد ، السنة الثانية عشرة ، العدد الأول .

وفى سنة ١٩٤٧ نشرت كتابى فى علم المالية العامة فى خمسة أجزاء ، وقلت فى مقدمته: إنى سوف أخصص الجزء السادس لاستنباط أحكام الشريعة الإسلامية فى المالية العامة. وقلت : إن الدستور الإسلامى فى المالية العامة جدير بأكبر عناية من فقهاء المالية العامة وفقهاء الشريعة الإسلامية على السواء ، وخليق بأن تتضافر الجهود على كشفه وعلى الانتفاع به فى حل معضلات التنظيم العالمى الحديث .

وإن المطلع على كتب الفقه الإسلامى لا يسعه إلا أن يقرر أن الإسلام قد وضع الأصول الجوهرية لأحكم وأعدل سياسة مالية ، ورسم وجوه الإنفاق الحكومى الرشيد ؛ لا سيما فى الاتجاه الاجتماعى الذى لم تسع اليه الدول الغربية إلا فى القرن العشرين ، ولما تبلغ فيه غايته المرجوة . كما رسم ضروب الفرائض التى تؤدى إلى « بيت المال » الذى ينفق منه على كافة المصالح العمومية تنفيذاً لقاعدة « عمومية الميزانية » ، حتى «قاعدة التصاعد فى الضريبة » وقاعدة « إعفاء الحد الأدنى للمعيشة » نص عليهما فى نصاب الزكاة التى كانت تؤدى إلى بيت المال ، وكان الخليفة يجبيها من المسلمين طوعا أو كرها .

هذه الأصول — وكثير غيرها — قررها الشرع الإسلامى ، ولكننا تناسيناها وغفلنا عن واجب التفصيل فى تطبيقها بما يساير تطور الحضارة واحتياجات كل عصر ، وعزفنا عن استخلاص علم شامل لها ، حتى إذا وصلنا إلى ما نحن فيه صرنا نهرع إلى الغرب ننتجع علم المالية العامة عند علمائه ومشرعيه ؛ فى حين أن أصول هذا العلم قد وضعت لنا وللناس كافة منذ أربعة عشر قرنا .

ويقينى أن الدول الإسلامية إذا استطاعت إقامه فرائض الدولة من الضرائب والأتاوى ، وإقامة وجوه الإنفاق الحكومى مع التزام القصد والرشد فيه ، على أسس مستمدة من وازع الدين وهديه ، إذا استطاعت الدول الإسلامية إقامة هذين النظامين — الضرائب والنفقات — على تلك الأسس المعنوية الرفيعة ، لا على أسس الإكراه والقهر وحدها ، مع الاسترشاد العملى بأخطاء الدول الغربية وتجاربها ؛ فإننا نكون بغير شك قد حققنا المثل الاعلى فى التدبير المالى الحكيم ، وضبط الإدارة المالية على الوجه الأعدل والأكمل .

***

تلك بعض ذكريات أثارتها هذه المقدمة التى رأيت أن استفتح بها دراستى للدستور الإسلامى ، بل قل هى أمانى تجيش فى وجدان كل مسلم ، وإن تحقيقها لقريب بإذن الله .

أسئلة حول الحق الطبيعي

للأستاذ الدكتور محمد معروف الدواليبي

١ — لم يتكلم الإسلام ولا الفقهاء عن الحق الطبيعي كما تكلم عنه فلاسفة اليونان ومن بعدهم الأدباء والفقهاء من الرومان ، ثم الكثيرون من العلماء في العصور الحديثة منذ العصر السابع عشر على لسان العالمين غروسيوس Grotius الهولاندي وبوفيندورف Puffendorf الألماني ، وذلك بفضل النظريتين المشهورتين : نظرية الحالة الطبيعية l'état de nature ، ونظرية العقد الاجتماعي le cantrat social .

٢ — وكل ماجاء عن اليونان ونقله عنهم الرومان في مطلع مدونة جوستينيان : le sinstitutes ، هو « أن الحق الطبيعي ذلك الحق الذي لقنته الطبيعة لجميع الموجودات الحية ؛ وهو ليس بخاص بالإنسان ، بل مشترك بينه وبين سائر الحيوانات التي تعيش في السماء والأرض والبحار ، وهو يشتمل على صلة الذكر بالأنثى ، وعلى التناسل ، وعلى تربية الأولاد » .

وهذا التعريف للحق الطبيعي نقله جوستينيان عن الفقيه أولبيان ؛ وقد أبدى عليه الفقهاء الرومان أنفسهم ملاحظات تتلخص بأنه إذا كان هنالك بعض الحيوانات تشترك حقيقة مع الإنسان في بعض الخصائص ، فليس ذلك من الحقوق في شيء ، وإنما هو من الفطرة المشتركة مابين الإنسان والحيوان وليس هذا بالحق الطبيعي ؛ لأن الحق يفترض في صاحبه أن يكون من الموجودات المتمتعة بالعقل ، والحيوان ليس بعاقل

٣ — وقال سيسرون Cicéron من أدباء الرومان في العصر الأول قبل الميلاد في تعريف الحق الطبيعي نقلا عن اليونان أيضا : « يوجد قانون حقيقي ، متفق مع الطبيعة ، ومنتشر لدى كل الناس وهو عام وثابت وأبدي ؛ وأن الله هو الذي أوجد هذا القانون ، وأن الذين يخرقون هذا القانون سيعاقبون ؛ لأنهم قد خرجوا على طبيعة الإنسان » .

وإن تعريف سيسرون هذا لهو أقرب للحقوق ، وهو يتناول جميع البشر بالمساواة فيه ، لافرق بين كبير وصغير ، ولا بين عرق وآخر ، ولا بين شعب وشعب .

٤ — غير أن العلماء — حتى اليوم — لم يستطيعوا أن يحددوا هذا الحق الطبيعي ليصلح أداة واضحة لإحقاق الحق لدى رجل الحقوق ورجال القضاء .

وجل ماهنالك أن نظرية « الحالة الطبيعية » تقول إن هنالك حقا طبيعياً موجوداً لدى الناس جميعاً قبل أن يقدم الناس على تأسيس الجماعات عملا بنظرية « العقد الاجتماعى » ؛ وهكذا فإن الحق الطبيعى يقابل فى العصر السابع عشر نظرية العقد الاجتماعى وماتنتج عنها من تنازل الإنسان عن بعض الحقوق الطبيعية لحكمة عملية، وضرورة اجتماعية فى سبيل تأليف المجتمع المنظم بموجب عقد فرضى هو العقد الاجتماعى .

٥ — وقد حوربت فكرة الحق الطبيعى خاصة — فى القرن التاسع عشر — من غير هوادة ، وكان من أبرز نقاط الهجوم المشتركة مابين كل من انتقدوا فكرة هذا الحق : أنه لا يستطيع أحد أن يثبت لهذا الحق قواعد واضحة ؛ وقالوا إن الفقهاء الذين يبحثون فى قوانين الطبيعة يعتمدون على ثقافتهم الشخصية واستنتاجاتهم الخاصة ، وهذا مايؤدى فى النهاية إلى وجود عدد من الحقوق الطبيعية بقدر عدد الباحثين .

٦ — ولما جاء هذا العصر العشرون ، عادت فكرة الحق الطبيعى إلى الظهور من جديد ، وبشكل آخر تحت ستار « المبادىء الأخلاقية » و « المثل العليا للعدالة » رغبة بأن يخرجوا الفكرة شيئاً ما عن غموضها ! وهذا كل ما استطاع العلماء إيضاح الحق الطبيعى به فى هذا العصر ، وبعد بضع آلاف من السنين من نشأة فكرة هذا الحق منذ أيام اليونان والرومان حتى الآن ، وبعد كثرة تلك المؤلفات الضخمة المتناقضة فى هذا الموضوع . ومن الطريف فى هذا المقام ماقاله أحد أساتذتنا فى جامعة باريس : إذا ذكر الحق الطبيعى ، فإنه لايسعنى إلا الإغراق فى الضحك من شىء لايمكن تحديده ، ولا الوقوف على كنهه .

٧ — وإذا عرفنا هذا ، فهنالك أسئلة حول الحق الطبيعى لعلنا إذا أوردناها وأجبنا عليها بما هو واقع وحقيق ارتفع الحجاب ، وزال الغموض .

ومن تلك الأسئلة .

أولا — لماذا اهتم بالحق الطبيعى فلاسفة اليونان ، وتبعهم فى ذلك فقهاء الرومان؟

ثانياً — لماذا لم يهتم المسلمون بالحق الطبيعى ، ولم يأت له ذكر فى فقه الإسلام ؟

٨ — والجواب على السؤال الأول سهل وبسيط ؛ وهو أن الحق الطبيعى إنما أخذ فلاسفة اليونان وفقهاء الرومان بذكره والمطالبة بالوقوف عند حده ، معالجة لفكرة التمييز مابين المواطنين فى الحقوق فى تلك الأيام ، والشذوذ على قواعد المساواة فيها ؛ ألا ترى كيف أن القانون الرومانى ظل منذ نشأة روما سنة ٧٥٤ قبل السيد المسيح حتى سنة ٢١٢ بعده امتيازاً ووقفا فى بادىء الأمر على سكان مدينة روما فقط

الأصليين دون بقية اللاتين فيما حول روما من منازل الإيطاليين ، ولم يستطع بقية اللاتين أن يلتحقوا بالوطنيين الرومانيين فى الحقوق إلا بعد أن صدر قانون جوليا فى سنة ٩٠ قبل السيد المسيح ، وجعل منهم استثناء فى الامبراطورية ! وأما الغرباء عن العرق اللاتينى من أبناء الامبراطورية الرومانية الواسعة فما استطاعوا أن يصبحوا وطنيين إلا عندما سيطر الامبراطور كاراكالا Caracalla وهو بنفسه من الغرباء : فينيقى سورى ، وليس برومانى ؛ فأزال — بحكم سيطرته على الامبراطورية — هذه الإهانة عن الغرباء ، وأصدر فى ذلك مرسوما امبراطوريا خاصا جعل حق الاستفادة من القانون الرومانى شاملا لجميع مواطنى الامبراطورية على اختلاف أعراقهم من غير تمييز ولا تفريق .

غير أن هذا المرسوم الامبراطورى لم تعش أحكامه بعد أن طردت عائلة سيفير Sévére من الحكم ، وهى العائلة التى ينتسب إليها كاراكالا ، بل إن المصريين أنفسهم ظلوا حتى فى عهد كاراكالا محرومين — ما عدا مدينة الإسكندرية — من الامتيازات المعترف بها للوطنيين الرومانيين ! وظل القانون الرومانى قائما على ما قامت عليه دولة روما فى الأصل من التمييز ما بين الحاكم والمحكوم ، وبين الأشراف والطبقة الشعبية !

ومن العجيب أن القانون الرومانى بنفسه لا يطبق فى هذا العصر العشرين إلا فى دولة جنوبى أفريقيا التى تبنت القانون الرومانى كما هو ، وجعلت منه قانونها المدنى ؛ وإذا بفكرة التمييز ما بين المواطنين فى الشرف والوضاعة تلازمه فى تلك الدولة . وكلنا يعلم الضجة القائمة منذ سنة حتى الآن فى الأمم المتحدة ضد حكومة جنوبى أفريقيا بسبب فكرة التمييز العنصرى والتفريق ما بين العرق الأبيض والعرق الأسود فى الحقوق ! !

وهكذا فإن السر فى ذكر الحق الطبيعى لدى أمة قامت حقوقها على التمييز بين المواطنين كما رأينا ، إنما هو الشذوذ فيها عن قواعد المساواة بين المواطنين ، ولا علاج لذلك الشذوذ إلا بالالتجاء إلى الحق الطبيعى الذى سوى بين الجميع ، والذى يجب أن يفهم ضمن هذه الحدود ، كفكرة فلسفية ، لا كقاعدة ذات أحكام من أحكام الحقوق ، وبذلك يزول اللبس والغموض .

٩ — وإذا عرفنا الجواب على السؤال الأول ، عرفنا منه بسهولة الجواب على السؤال الثانى وهو : لماذا لم يهتم المسلمون بالحق الطبيعى ، ولم يأت له ذكر فى فقه الإسلام ؟ وذلك لأن الإسلام قام فى أساسه على محاربة هذا التمييز بين المواطنين ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حتى قال : لافضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود

إلا بالتقوى ؛ بل ذهب أيضاً إلى أبعد من ذلك بكثير فأمر الغالبين من المسلمين أن يقولوا للمغلوبين من أهل الكتاب : لكم مالنا ، وعليكم ماعلينا ! ! فما الحاجة إذن لذكر الحق الطبيعى فى فقه الإسلام ، بعد أن سوى الإسلام مابين المحكومين والحكام ، وبين المواطنين على اختلاف الأعراق والطبقات ؟ !

١٠ — بقى العجب كل العجب أن يذكر الحق الطبيعى فى قوانيننا المدنية الحديثة فى مصر وسورية — وهذه أخذته عن الأولى — تقليداً للحقوق الرومانية ، رغم أن التشريع فى بلادنا ، فى تاريخه القديم الإسلامى ، وتاريخه الحديث المزيج ، قائم على فكرة المساواة بين المواطنين بلا تمييز بينهم ، لا بسبب الأعراق ولا بسبب الطبقات .



بلاءٌ ليس يَعْدِلُهُ بـلاءٌ عداوةُ غيرِ ذى حسبٍ ودينِ
يبيحك منـه عرضاً لم يصنه ويرتع منك فى عرض مصونِ

التشريع الجنائى الاسلامى

للأستاذ عبد القادر عوده

السرقة

أنواع السرقة : —

السرقة فى الشريعة الإسلامية نوعان : سرقة عقوبتها حد ، وسرقة عقوبتها التعزير ؛ والسرقة المعاقب عليها بالحد نوعان :

(أ) سرقة صغرى (ب) سرقة كبرى .

فأما السرقة الصغرى فهى أخذ مال الغير خفية ، أى على سبيل الاستخفاء [(١)] .

ويعرفها بعضهم بأنها أخذ مال الغير مستترا من غير أن يؤتمن عليه [(٢)] .

ويُدخل البعض فى تعريف السرقة شروطها ، فيعرفها بأنها أخذ العاقل البالغ نصابا خفية عمن هو متصد للحفظ مما لا يتسارع إليه الفساد من المال المتمول للغير من حرز بلا شبهة [(٣)] .

ويعرفها البعض بأنها أخذ المال خفية من حرز مثله بشروط معينة [(٤)] .

ويعرفها البعض بأنها أخذ مال الغير خفية ظلما مع شرائط [(٥)] ، ويقول بقطع من أخذ نصابا محرزا ملكا محترما خفية لا شبهة فيه [(٦)] .

ويعرفها البعض بأنها أخذ مال محترم لغيره وإخراجه من حرز مثله لا شبهة له فيه على وجه الاختفاء [(٧)] .

ويعرفها البعض بأنها أخذ مكلف حراً لا يعقل لصغره أو مالا محترما لغيره نصابا أخرجه من حرزه بقصد واحد خفية لا شبهة فيه [(٨)] .

وأما السرقة الكبرى فهى أخذ مال الغير على سبيل المغالبة . وتسمى السرقة الكبرى حرابة ، وسنفصل القول فيها فيما بعد .

والفرق بين السرقة الصغرى والسرقة الكبرى هو أن السرقة الصغرى يؤخذ فيها المال دون علم المجنى عليه ودون رضاه ، ولا بد لوجود السرقة الصغرى من توفر

---

(١) ابن عابدين ج ٣ ص ٢٦٥ — بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٥ (٢) بداية المجتهد ج ٢ ص ٣٧٢ (٣) شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢١٩ (٤) أسنى الطالب ج ٤ ص ١٣٧ ونهاية المحتاج ج ٧ ص ٤١٨ (٥) الروض النضير ج ٤ ص ٢٢٨ (٦) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٤ (٧) كشاف القناع ج ٤ ص ٧٧ (٨) حاشية البنانى ج٨ ص ٩٢ — مواهب الجليل ج٦ ص٣٠٦ .

هذين الشرطين معا ، فإن لم يتوفر أحدهما فلا يعتبر الفعل سرقة صغرى ، فمن سرق من دار متاعا على مشهد من صاحب الدار دون استعمال القوة والمغالبة فلا يعتبر فعله سرقة صغرى ، وإنما يعتبر فعله اختلاساً ، ومن خطف مالا من يد آخر لا يعتبر فعله سرقة صغرى ، وإنما يُعتبر فعله غصباً أو نهبا .

والاختلاس والنهب والغصب كلها صور من السرقة ولكن لا حدّ فيها .

ومن أخذ متاعا من دار برضاء صاحبها وفى غير حضوره لا يعتبر سارقا .

أما السرقة الكبرى فيؤخذ فيها المال بعلم المجنى عليه ولكن بغير رضاه وعلى سبيل المغالبة ؛ فإن لم تكن مغالبة فالفعل اختلاس أوغصب أو نهب مادام الرضاء غير متوفر .

* * *

السرقة المعاقب عليها بالتعزير : — هى نوعان :

أولهما : يدخل فيه كل سرقة ذات حد لم تتوفر فيها شروط الحد أو درىء الحد فيها للشبهة كأخذ مال الابن وأخذ المال المشترك ، ويستوى أن تكون السرقة فى الأصل صغرى أو كبرى .

ثانيهما : أخذ مال الغير دون استخفاء : أى بعلم المجنى عليه ودون رضاه وبغير مغالبة ويدخل تحت هذا النوع الاختلاس والغصب والنهب مثل أن يأخذ السارق ملابس آخر خلعها ووضعها بجواره ، ثم يهرب بها على مرأى من المجنى عليه ، ومثل أن يخطف شخص من آخر ورقة مالية كان يمسكها بين إصبعيه ، وهذا النوع من السرقة لا حد فيه : أى لا قطع فيه لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا قطع على نباش ولا منتهب ولا خائن » .

* * *

ولا تخرج السرقات فى الشريعة الإسلامية عن هذه الأنواع الأربعة ، ويطلق الفقهاء عادة لفظ السرقة دون تمييز على السرقة الصغرى ، وإذا تكلموا عن السرقة وأحكامها فإنما يعنون السرقة الصغرى ، بينما يسمون السرقة الكبرى بالحرابة أو قطع الطريق ، أما ما عدا ذلك من نهب وغصب واختلاس فيطلقون عليه — بصفة عامة — لفظ الاختلاس .

والسبب الذى دعا الفقهاء إلى إطلاق لفظ السرقة على السرقة الصغرى دون تمييز أن عقوبتها قطع اليد ، وأن أكثر السرقات تقع على سبيل الاستخفاء : أى تقع سرقة صغرى .

والقاعدة العامة التى يسير عليها الفقهاء أنهم يعنون عناية تامة بالجرائم المعاقب عليها بحد أو قصاص : يبينون أركانها وشروطها ويفصلون أحكامها ولا يتركون صغيرة أو كبيرة إلا تعرضوا لها ، أما الجرائم المعاقب عليها بالتعزير فلا يعنون بها تلك العناية ولا يتعرضون إلا للمهم منها ، وما يتعرضون له يكتفون ببيان أحكامه مجملة ، وإن كانوا قد عنوا بالتعازير عامة فيما يختص بالعقوبات ، وحد كل عقوبة وسلطة القاضى وولى الأمر .

ولعل عذر الفقهاء فى أخذهم بهذه الطريقة أن أكثر جرائم التعزير يترك لأولى الأمر تحديد الأفعال المكونة لها والعقوبات التى تقع على مرتكبيها ، وأن هذه الجرائم يختلف النظر إليها باختلاف البلدان ونوع الحكومات ، فكان من المعقول أن لا يهتم بتفصيل أحكام الجرائم التعزيرية كما تفصل أحكام الجرائم الثابتة ، وهى جرائم الحدود والقصاص ، خصوصاً وأن فكرة تجميع الأحكام التشريعية والأفعال المحرمة فى مجاميع تنشر على الناس لم تكن قد ظهرت بعد .

ويجب أن نلاحظ أن الفقهاء حين يتكلمون على السرقة الصغرى يتناول كلامهم بالضرورة السرقة المعاقب عليها بالتعزير بنوعيها ، إذ النوع الأول ليس إلا سرقة صغرى أو كبرى تخلف فيها شرط من شروط الحد ، ولأن النوع الثانى وهو ما يطلق عليه لفظ الاختلاس لا يختلف عن السرقة الصغرى إلا فى بعض الشروط التى يجب توفرها فى السرقة دون الاختلاس ، ولهذا كان الكلام عن السرقة شاملا فى عمومه للاختلاس .

ويمكننا أن نحصر أوجه الخلاف بين السرقة الصغرى والاختلاس فيما يأتى : —

(١) عقوبة السرقة القطع ، وعقوبة الاختلاس التعزير .

(٢) الركن المادى فى السرقة هو الأخذ على سبيل الاستخفاء ، وفى الاختلاس هو الأخذ دون استخفاء .

(٣) يشترط فى السرقة أن يكون المسروق فى حرز ، ولا يشترط ذلك فى الاختلاس .

(٤) يشترط فى السرقة أن يبلغ المسروق نصابا معينا ، ولا يشترط ذلك فى الاختلاس .

* * *

ونستطيع بعد أن عرفنا الفرق بين السرقة والاختلاس أن نقول بأن أحكام الاختلاس فى الشريعة تكاد تكون أحكام القانون المصرى فى السرقات المعتبرة جنحا ، وإن كان ثمة فرق بين الشريعة والقانون فى بعض الحالات القليلة ؛ من ذلك أن القانون المصرى يعتبر الاختلاس الحاصل من متعهد النقل سرقة بينما يعتبره فقهاء الشريعة خيانة أمانة ، وهذا الفرق لا أهمية له لأن الجريمة من جرائم التعزير ، ولولى الأمر بما له من

سلطة اختيار العقوبة التعزيرية أن يعاقب على خيانة الأمانة بعقوبة الاختلاس أو بأية عقوبة أخرى .

وإذا وازنا بين أحكام الشريعة الإسلامية وأحكام القانون المصرى فيما يختص بالسرقات فسنجد أن الشريعة تعاقب على الأفعال التى يعاقب عليها القانون باعتبارها سرقة ، فالشريعة تعاقب على أخذ المال خفية « السرقة الصغرى » وعلى أخذه مغالبة : أى بإكراه وتهديد فى الطرق العامة وغيرها « السرقة الكبرى أو الحرابه » وعلى أخذه بغير استخفاء وبغير مغالبة «الاختلاس» أما القانون فيعاقب على اختلاس المال سواء كان الاختلاس بعلم المجنى عليه أو بغير علمه « أى سواء أخذ خفية أو فى غير خفية » مادام ذلك دون رضاء وبغير إكراه ، ويعتبر القانون الأفعال التى من هذا النوع جنحا . كذلك يعاقب القانون على الاختلاس مغالبة : أى بإكراه وتهديد فى الطرق العامة وغيرها ، وتعتبر الأفعال التى من هذا النوع جنايات .

***

ولقد كانت القوانين الوضعية تعاقب — حتى الثورة الفرنسية — على اختلاس منفعة الشىء وعلى اختلاس حق حيازته على اعتبار أن اختلاس المنفعة واختلاس الحيازة سرقة ، كذلك كانت هذه القوانين تخلط بين السرقة والتبديد والغصب ، وتعتبرها جميعا سرقة متأثرة فى ذلك بأحكام القانون الرومانى الذى أخذت عنه . أما الشريعة الإسلامية فإنها على قِدَمها وقد وجدت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا لم تخلط بين سرقة الشىء والانتفاع به أو استرداد حيازته ، ولم تخلط بين السرقة والجرائم الأخرى الواقعة على الأموال كالتبديد والغصب .

وسنرى عندما نستعرض الأفعال المكونة لجريمة السرقة على وجه التفصيل أنها لاتختلف شيئاً عما وصلت إليه أرقى القوانين الوضعية الحديثة .

ولست أريد من هذا أن أبين للناس مدى دقة الفقه الإسلامى وصفاته ؛ وإنما أريد أن أبين للناس أن القانون الوضعى حينما يتطور مرة بعد مرة إنما يسير فى أثر الشريعة الإسلامية ويأخذ بمبادئها ، وحينما يقال إنه وصل إلى الكمال يكون قد أوشك أن يبلغ فقط بعض مابلغته الشريعة . ولعل اليوم الذى تأخذ فيه القوانين الوضعية عن الشريعة الإسلامية قد أصبح قريباً ؛ بل أقرب مما يظن أكثر الناس .

من تاريخ رجالنا :

أيها المحلفون !

لا . . . الله لا الملك

[بوجهه الصريح المشرق ، وبلحيته التى وخطها الشيب إلا شعرات سوداء تحتفظ فى سمته الرهيب عنفوان الأمل وشباب العزيمة . . . وقف « محمد على » يومين فى قفص الاتهام يترافع عن نفسه وعن شقيقه وإخوانه الخمسة فى محاكمة كراتشى الشهيرة ، سنة ١٩٢١ ، أمام هيئة محلفين من خمسة أشخاص : اثنان منهم هندوكيان والآخرون مسيحيون أحدهم أوروبى .

كانت جريمتهم أنهم اشتركوا فى مؤتمر رأسه « محمد على » زعيم مسلمى الهند قبل التقسيم وأصدر قرارا مدعما بالقرآن والسنة يدعو المسلمين إلى مقاطعة وظائف الحكومة البريطانية فى الهند وخاصة العمل فى القوات المسلحة وقد استجاب المسلمون للقرار فاعتقل آلاف منهم ، ووقع الإنجليز فى حرج شديد . . .

لم ينكر محمد على التهمة ولكنه اعترف بها ، وجهر بحكم الله فيها . وما أتم مرافعته حتى استحالت القاعة محراباً خاشعاً ، واقشعر كل من فيها رهبة لهذا الرابض فى القفص ... وصدر الحكم فكان مفاجأة للجميع ، كان الكل ينتظر من هيئة ليس فيها مسلم أن تحكم « بالنفى المؤبد » ، فإذا هو حكم بالبراءة !

مات محمد على (وهو غير مولانا محمد على اللاهورى رئيس الأحمدية) سنة ١٩٣١ عن ٥٣ سنة ودفن إلى جوار المسجد الأقصى الذى كان يحن إليه ويهيب بالمسلمين إلى الذود عنه ، بعد حياة عامرة بالجهاد فى سبيل الله ، وبالدفاع عن فكرة الخلافة الإسلامية وأخوة المسلمين كافة .

إن هذه المرافعة صفحة غراء من تاريخنا الحديث ، وبرهان رائع على الحياة التى تجيش فى كيان الأمة الإسلامية المغلوبة على أمرها] .

التحرير

* * *

قبل أن يوجه محمد على كلامه إلى هيئة المحلفين التفت إلى ناحية مجلس المحكمة فقال : « ألا يمكن أن يجلس المحلفون ليكونوا منى فى هذا الجانب ؟ إنى حتى الآن لم أر وجوههم . إنى أريد إغراءهم كما أغريت القوات المسلحة » (ضحك فى المحكمة) .

وعلى ذلك أوعزت المحكمة إلى المحلفين أن يغيروا أماكنهم ، وكذلك القاضى غيّر وضع مقعده بحيث يواجه المتهمين .

ثم نهض مولانا محمد على فى السكون الشامل موجهاً كلامه إلى هيئة المحلفين :

أيها المحلفون : قد رجوت القاضى الرئيس ليتيح لى أن أرى وجوهكم ، إذ باستثناء واحد منكم لم يكن يتيسر لى ذلك ، ولقد قلت إننى أريد إغراء المحلفين ، ولقد كان فى الحقيقة من وراء ذلك مراد آخر ، ربما كان ثانوياً كما قد يقول المدعى العام . لقد كان مرادى أن تكونوا بمثابة ستر بينى وبين السيدات اللواتى يجلسن الآن خلفكم ، وإلا فقد يزيد علىّ المدعى العام تهمة (إغراء) أخرى (ضحك) غير أنى ، على أى حال ، أرى أنه نتيجة لمحاولتى فى الإغراء قد حولت القاضى لناحيتى اليوم . (ضحك) .

أيها السادة : أظن أننى سآخذ من الوقت ما أستطيع ، ولذلك أرى لزاماً علىّ أن أبين لكم أننى إن أردت الدفاع عن نفسى أو عن زملائى لنتخطى حكم النفى المؤبد أو المشنقة أو السجن — ولا أدرى ما الذى يدخره القاضى لنا — إننى إن أردت ذلك ، لما كان لى فى الإطالة عذر أبداً ، كلا أيها السادة ، فما كان لى أن أضيع لحظة واحدة من وقتى ووقتكم لهذه الغاية .

إننى لا أبتغى أى دفاع ، وليس لدى ما أدفع به ، بل لا أرى حاجة إلى دفاع ، لأننا لسنا نحن الذين نحاكم ، إنها الحكومة نفسها التى تحاكم ، إنه القاضى نفسه الذى يحاكم ، إن نظام النيابات العامة بأجمعه وسائر مواد القانون هى التى تحاكم ، فلا مجال لسؤال حول دفاعى ، إذ هى قضية واضحة غاية الوضوح . وقد أبديت شكرى للحكومة فى المحكمة الابتدائية لأنها تصدت للمرة الأولى وبوضوح سافر وأفسحت لنا المجال لأخذ قرار حول موضوع محدد لدعوى واضحة بينة ، ذلك الموضوع المحدد للدعوى البينة الواضحة هو :

هل ينبغى لشريعة الله أن تكون أهم لدى التابع البريطانى من قانون الملك — القانون الوضعى — ؟ سمّوه صاحب الجلالة ، أوصاحب الجلالة الامبراطورية ، عظموه بما شئتم له من تعظيم ، أظهروا له كل طاعة ، وقدّموا له وسعكم من الولاء ، احملوا له غاية التوقير والاحترام ، أصيخوا السمع إن أردتم حتى لما يثار حوله من خرافات . غير أن القضية التى نحن بصددها هى : هل هذا الإجلال أو هذه الخرافات لها أن تقف لحظة واحدة فى طريق الولاء الذى يحمله لله كل إنسان . أيها السادة ، إننى

لا أفكر لنفسى ولا أفكر من أجل زملائى المتهمين معى ، ولكنى أفكر لكم . إنه من سوء الحظ أن ليس بينكم مسلم واحد ؛ فثلاثة منكم مسيحيون واثنان هندوكيان ، ولكن ذلك لا يهم مطلقا ، فإننى إنما أخاطب أناساً من البشر . إنى أخاطب هنوداً فى الأعم الغالب ، لا أدرى إن كنتم جميعا هنوداً ، ولعل واحدا بينكم غير هندى — انجليزى مثلا ! — ولكنه استقر فى الهند ليتخذ منها موطنا ، وهو على هذا الاعتبار يمكن أن يعد هنديا ! ، ولذلك فإننى أخاطب على الأقل أكثرية منكم قدموا من بلاد مشبعة بالروح الدينية ، وهى تقليدياً بلاد روحية جاهدت خلال العصور لإعلان شأن الروح على الجسد .

أيها السادة ، إننا نسمع كثيرا عن التسامح فى هذه الأيام المستنيرة ، ولا أحسب أن أحدا حتى المدعى العام يخالفنى إن قلت إننا جميعا بحاجة إلى هذا التسامح . إن الحكومة البريطانية لم تكل من ترديد قولها بأنها حكومة متسامحة ، وأن الحكم البريطانى حكم موطد على أساس التسامح ، ولست أظن أن هناك حكومة فى هذا العالم المتمدن فى هذا القرن الموفى على العشرين تجرؤ على القول بأنها تخالف قاعدة التسامح . ولكن ، ما التسامح بعد كل ذلك ؟ إنه كما ورد فى القول المشهور : « سيدى ، إننى أخالف كل كلمة مما ذكرت ، ولكننى سأقاتل لآخر قطرة فى دمى دون حقك فى أن تقول ما تريد » ذلكم هو التسامح : أى أنه مطلوب حين يقع الخلاف ، وحيث يكون الناس على غير رأى واحد . وحيث يتخذ الناس وجهات نظر مختلفة جد متباعدة ، وإلا فلا معنى للتسامح ، ولكننى مع ذلك لا أنكر أن من الناس من يحمل فكراً خرقاء ، وللأسف كثير ما هم ، وأحسب أن المدعى العام وهو فرد من الناس لديه بعض أفكار فى غاية الحمق ، ولا نزال ننتظر لنرى ماذا يحمل القاضى من الرأى ، وسنعلم ذلك بعدما أحمل على الصمت . وليس السؤال هنا ما إذا كان حكم الشخص صائبا أم خاطئا ، فقد يكون فى أحكام الناس الغباء ، إلا أنه ، إذا ما أعطاك رجل أو هيئة من الرجال ضمانا لتحمل بحرية آراءك الخاصة وتطبقها ، فإننى أعتقد أن من واجبهم أن يلتزموا ذلك الضمان .

نريد أيها السادة أن يفهم العالم قضيتنا ، ونحب أن تذكروا أن القرار الذى ستتخذونه هنا لا ينحصر منتظروه فى الحاضرين فى هذه القاعة ، أو عشرات الألوف من سكان كراتشى . لقد قيل آنفاً إن القرار الذى اتخذناه فى مؤتمرنا الإسلامى لم يكن معنياً به الذين حضروه من بعض العلماء وبضعة آلاف من الناس . إنما اتخذ ليتلقاه عدد أكبر ؛

وهذه المحاكمة كذلك تهم أكثر من مستمعى هذه القاعة ، أكثر من حضراتكم الخمسة دون شك بل هى فى الحقيقة تهم العالم أجمع . إننا نبتغى حقنا فى التمتع بحماية القانون لعقائدنا وتعاليمنا الدينية المتميزة ، ولتندم الحكومة فتقول : إننا قد رأينا خطأ سبيلنا (ملتفتا إلى « مستر رُس ألستن Ross Alston ») هذه هى الكلمات التى يريدها صديقى مستر السّتن لتكون آخر قولى ، وإنها لسوف تكون كذلك ، ولكن بالنسبة لما هو جدير بالحكومة أن تفعله (ضحك) ولكن هل ترى تقول الحكومة ذلك ؟ وهل هى ملتزمة عهدها فى إطلاق حرية العقيدة ؟ أم أنها ستقول : كلا ! إننا أقوياء ، إننا أشداء ، إن لدينا مدمرات ، إن لدينا طائرات ، إن لدينا هذه المرافق الحربية جميعاً إن لدينا مدافع رشاشة — إننا قد دحرنا أقوى أمم أوروبا ، وإن كان فى حلفنا — طبعاً — ستة وعشرون دولة ! (ضحك) وكذلك رجال الهند وأموالها وسائر مواردها — ولكن هذه مسألة أخرى ! (ضحك) — فلا يمكننا التسامح حيال آرائكم وتكاليفكم الدينية . إنها إن قالت ذلك فهو شىء نفهمه ، ومهمتنا لذلك ليست الدفاع عن أنفسنا ، ولكن إظهار هذه القضية واضحة ، لأنها قضية وطنية ، لا ، بل هى أكثر من ذلك ، إنها قضية يتوقف عليها إلى حد كبير تاريخ العالم : هل كلمة البشر فى هذا القرن المتحضر ألزم ولاءً من كلمة الله ؟ إن القضية ليست « بين محمد على وستة آخرين من جهة والحكومة من جهة أخرى » ولكنها قضية « الله مع البشر » فهى لذلك بين الله والإنسان . هذه هى الدعوى ، والمشكل كله « هل سيكون السلطان لله على الإنسان أم للانسان على الله ؟ »

أيها السادة ، لقد كنتم هنا ولم تكونوا المقصودين إذ أبينا القيام حين طلب منا القاضى أن نقوم . لقد اتفق أن تكونوا هنا ، ولقد جهدنا دائماً فى ألا نظهر للقاضى إلا كل احترام ، ولسنا من الحمق بحيث نختلق مضايقات لا لزوم لها لإثارة القاضى واستفزازه ، إننا لا نحمل حقداً عليه ، وكل مافى الأمر أن ذلك كان لاعتبار احترام الإنسان مخالفة لاحترام الله ، وكما قال أخى فى محكمة البداية ، وكما أقول لكم الآن إننا لا نعتبر الملك ملكنا بعد الآن ، إننا لا ندين بأى ولاء لأى إنسان يحول بيننا وبين حقنا فى إخلاص ولائنا لله . ليس لدى كلمة أقولها ضد الملك بالذات أو العائلة المالكة ، ولكن عندما يكون الأمر أمراً « لله » ضد أية حكومة ! فإنى لا أستطيع أن أحمل أى احترام لهذه الحكومة . إنى لا أحترم حكومة لا تطلب منى أن يكون احترامى الأول لله وشريعته . لذلك كانت القضية كلها فى الحقيقة كما قلت بين الله والإنسان .

لقد عرض المدعى العام مرافعته بمهارة فائقة ، وعند ما تعرض لمعتقداتنا الدينية وأحكام الله ، كان حريصا على تخطيها بالسرعة الممكنة ، وقد كان يتزحلق على جليد رقيق ، فترك كل ذلك ظهرياً . إننى الآن أتحداه ، إننى أتحدى القاضى ليصدر قراراً فى هذه النقطة ، إنها ليست مسألة حقيقة تلك التى عليكم معالجتها أيها السادة المحلفون . فإذا عالج القاضى قانونه فى تقديره ، وحكم علينا ، وإذا اتخذت هيئة المحلفين فى هذه القضية — التى تمثلون فيها دور المحلفين — قراراً ضدنا ، وإذا هو استعمل حقه كقاض بالنسبة للوقائع والقانون فى القضايا التى تعطون فيها آراءكم كمستشارين لحكم علينا غير معتبر التزاماتنا الدينية ، فعندئذ تتضح طريقتنا . لا شأن عندى للعقوبة التى تنتظرنا ، ولا تحت أى مادة من مواد القانون ستحل بنا ، إذ هناك عدد من هذه المواد : ١٢٠ ب ، ١٣١ ، ١٠٩ ، ٥٠٥ ، ١١٧ وهكذا . . . وبالنسبة لهذه المواد والتهم المتعددة ما دام يعنينى أمرها ، فقد اختلط على الأمر جداً ، وإننى أحاول أن أحصى مجموع السنين التى سيحكم بها على (ضحك) إننى لا أملك سوى حياة واحدة ، ولا أدرى إن كانت كافية لتشمل هذه السنوات العديدة إذ عوقبت بما أستحق (ضحك) .

ولكن ذلك لا قيمة له مطلقاً ، إن الذى أريد هو قرار من المحكمة نيابة عن الحكومة بأن محاكم الهند ليس فى مقدورها منح أية حماية لكل من يفعل مثل الذى فعلت — مع أنها تقر أن الذى فعلت أمر تكلفنى به عقيدتى ويأمرنى به ربى — إن الله بجلاله ينادى من علياء عرشه الخالد « أيها الإنسان الذى خلقته من علق ، ورفعته إلى ما هو فيه من القوة والمجد ، مهما تكن ، ومهما يكن لديك ، فإنى أنا الذى أعطيتك ، فاعبدنى ولا تعبد أحداً من خلقى دونى » فمهما يكن ما قد أحمله من احترام للملك ، فإنى لا أملك ولا أستطيع أن أخضع له حين يدعونى ألا أخضع لله أو أن أعصى أمراً من أمره[1] .

« يتبع »

---

(١) مترجمة عن مرافعته الأصلية باللغة الإنجليزية من كتاب Writings and speeches Of Moulana Mohammad Ali. ، جمع السيد أفضل على . والحق أننا عانينا فى الترجمة صعوبة وحرجا ، فإن العذوبة والسلاسة والروعة فى لغة مرافعه « محمد على » لايمكن أن تترجم ، رحمه الله ورضى عنه وأرضاه .

التحرير

وجهة نظر

متى وكيف يقوم الحكم الإسلامي؟

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

قبل نحو ست سنوات انتشرت دعوة الإخوان المسلمين فى ديار الشام . وقويت بالشباب والنواب وحملة الأقلام ، وتجاوبت العواطف بين الإخوان المسلمين هناك والإخوان المسلمين هنا ، وكان لهم هنا وهناك صحيفتان يوميتان قويتان . وحل موسم الانتخابات لمجلس النواب السورى فتقدم الإخوان المسلمون هناك لخوض المعركة الانتخابية ، وكانت مصر تتلقى أخبار تلك المعركة من الشام — فى الصباح المبكر ، وفى الضحى ، وفى المساء ، وقبل النوم — من أسلاك البرق ومن الهاتف (التليفون) وبكل وسائل المواصلات . وكان اهتمام الإخوان المسلمين فى مصر بحركات هذه المعركة الانتخابية فى الشام إن لم يزد على اهتمام الإخوان الذين فى الشام فإنه لم يكن يقلُّ عنه بلا ريب . ولاحظ القائد الشهيد أخى حسن البنا رحمه الله أن كاتب هذه السطور أقل حماسة لهذا الأمر مما كان يتوقع ، فجاءنى ذات مساء ، وجلس إلى جانب مكتبى فى قلم تحرير صحيفة الإخوان اليومية فى القاهرة وقال لى :

— إنى لاحظت أمراً عجباً . إننا منذ تعارفنا وتعاونا قبل عشرين سنة لم يحدث حادث أو تنزل نازلة إلا كانت قلوبنا متجاوبة فى اتجاه واحد بلا تواطؤ ولا مذاكرة . والآن فإن هذه الانتخابات المحتدمة معركتها فى الشام يقوم بها إخوان لنا عرفناهم من طريقك ومن طريق صحيفة (الفتح) ، أو شباب يعدون أنفسهم أبناءك أو كأبنائك ، وفيهم عدد غير قليل من ذوى قرابتك ، وإن أحدهم كان يساكنك هنا فى منزلك وطار لخوض المعركة فى دمشق اهتماما بها . وما منا إلا من هو مهتم بها كاهتمام إخواننا هناك ، إلا أنت فإنى أراك واقفا تتفرج بدم الشيوخ ، وعهدنا بك أنك أكثر حماسة منا لكل ما نتحمس له .

فأجبته : — إنى خائف من أن ينجحوا ، وأن تكون أكثرية النواب منهم ، فتكون النتيجة تأليف الوزارة منهم واضطلاعهم بمسئولية الحكم !

فبدت على وجهه أمارات الدهشة رحمه الله ، وسألنى :

— وهل هذا مما تخافه ؟ !

قلت : — أجل . . .

قال : إذن فإنى كنت مصيباً بالمجيء إليك الآن ، فإن اختلافنا إلى هذا الحد يحتم علينا أن نتفاهم .

فسألته : هل لو بلغ النجاح بالإخوان المسلمين فى الشام إلى درجة أن تتألف منهم الوزارة ، سيتولون الحكم بالموظفين الموجودين فى الوزارات والمصالح والدواوين ، أم سيعزلونهم ويأتون بموظفين من بلاد أخرى ؟

قال : طبعا سيبقى الموظفون كما هم ، إلا من يكون ملوثا بمخازى يؤاخذه عليها القانون .

قلت : أنا لا أزعم أن الشكوى من الموظفين هناك بلغت إلى حد الشكوى من أمثالهم هنا . ومع ذلك فإن مصر الآن قدوة للشام والعراق وجزيرة العرب ، وكل ما أشكوه أنا وأنت من العيوب هنا قد سرت عدواه إلى هناك بمقياس واسع أو ضيق ، ومهما استعان وزراء الإخوان المسلمين برؤساء تغلب عليهم النزاهة فإن العيوب أفدح من أن تصلح إلا بقوة خارقة تتاح من عالم الغيب ، وهذا مالا نرى الآن دلائله ، فكل عيب فى أداة الحكم وسيرة الموظفين سيلصق بوزارة الإخوان المسلمين ، ونتيجة ذلك أنه سيوصم به الإسلام نفسه . هذه واحدة !

ثم سألته : هل وزارة الإخوان المسلمين ستتولى الحكم بهذه الأنظمة ، أم أعددتم أنظمة إسلامية تحل محلها ؟

قال : لم تتح لنا الفرصة بعد لإعداد أنظمة إسلامية ، ولم يتخصص أحد منا حتى الآن لهذه الدراسة . ولو فعلنا فإن الجو لا يلائم هذا التغيير ، ولا نجد الآن من يعين عليه .

قلت : إذا كان الإخوان المسلمون فى الشام ستتولى وزارتهم الحكم بالأنظمة الموجودة وبالموظفين الموجودين ، فما فائدة الإسلام من هذا ؟ أنا أرى أن تحمُّل غير الإخوان المسلمين مسئولية هذا العبء أكثر فائدة للاسلام من تحمل الإخوان هذه المسئولية . وهذه الثانية .

ثم سألته : هل خوض هذه الانتخابات ، ثم الاندفاع بعد ذلك بما تدفعنا إليه ، هو فى ذاته نظام من أنظمتنا ، أم هو أجنبى عنا وطارىء علينا ؟

قال : وإذا كان أجنبيا عنا ، فهل لدينا نظام غيره لائق بنا وليس بأجنبى عنا ؟

قلت : إن النظام الذى كان يأخذ به سلفنا ، وليس هو بأجنبى عنا ، ما برح معطلا

منذ ألف سنة ، وكان معمولا به فى خير القرون : القرن الذى ربّى النبى صلى الله عليه وسلم رجاله ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وآخر العهد به فى صدر الدولة العباسية عندما كان يتولاها رجال ولدوا فى دولة التابعين والتابعين لهم بإحسان . وهذا النظام هو الذى كان يقال له نظام أهل الحل والعقد . وهو على عكس النظام الأجنبى ؛ لأن نظامنا قائم على الاحتكام فى الشئون العامة إلى خاصة الخاصة . أما النظام الأجنبى فقائم على الاحتكام إلى العامة فى التقديم والتأخير والرفع والخفض بين طبقة خاصة الخاصة . وإن هذا النظام الأجنبى فشل وأفلس وجرّ الويلات فى كل أمة اعتمدت عليه ، ما عدا الإنجليز الذين هم أصحاب هذا النظام . ومع ذلك فإن له فيهم عيوباً لا ينكرونها ، وإن كانت أقل من عيوبه فى غيرهم . أما نظامنا الذى عطلناه من ألف سنة ، أى منذ استعجمت دولة بنى العباس وتولاها مواليهم من الفرس ثم غلمانهم من الترك ، فإنه — فى المدة التى كان قائماً فيها ، وكنا نعتمد عليه فى دولتنا وكياننا — كان يأتينا بالخير كله ، وكنا به وبسائر أنظمتنا الأصيلة سادة الدنيا وخير الأمم والشهداء عليها . وما لم نرجع إليه بإعداد رجاله وتربيتهم من الآن على الأخلاق الضرورية له والتى لا يكونون من أهله إلا إذا كانوا من أهلها ؛ فإن كل محاولة لأخذ المسئوليات العامة لا نتيجة لها إلا رئاسة أشخاص منا باسم الإسلام من حيث لا يستطيعون أن ينفعوا الإسلام بشىء . ومع ذلك فإنى كما لا أكره أن يشغل أىّ وظيفة من الوظائف أىُّ رجل من ذوى الأخلاق الحسنة ، وأفضّله على من هو أقل منه فضائل ، كذلك لا أكره أن يشغل أىُّ رجل من الإخوان المسلمين أىّ وظيفة وأى مركز فى الحكومة ؛ إذ لا ريب عندى أنه يكون أنفع للناس من الآخر الذى لا يتحلى بمثل فضائله . أما أن تتقدم هيئة من الهيئات الإسلامية ، أو جماعة من الجماعات التى لها برامج إسلامية ، لتولى الحكم باسم الإسلام فى نظام لا يعترف بسنن الإسلام وقواعده ، وبأناس لم يتربوا التربية الإسلامية الصحيحة ، فليس ذلك من مصلحة الإسلام .

والآن أعود فأقول بعد ست سنين من ذلك الحوار الأخوى الصميم : إن المسلمين مضى عليهم ألف سنة وهم مقتصرون من إسلامهم على المسجد ومظاهر رمضان ومناسك الحج ، وقد أهمل جمهورهم الأعظم آداب الإسلام فى البيوت ، والأسواق ، والمجتمعات والأندية ، والدواوين والمحاكم ، وعطّلوا فى كل ذلك أحكامه بمقياس واسع فى بعض الأمور ، أو بمقياس ضيق فى بعضها الآخر . ألا يستطيعون أن يصبروا عشرين سنة أخرى يربون فيها جيلا يعيش للاسلام وأنظمته ، لا لنفسه ووجاهته . ويعدون فيها لذلك الجيل أنظمة الإسلام وآدابه وسننه وقواعده وأحكام فقهه الاجتماعى والإدارى

والمالى والدولى ، فضلا عن تنظيم فقه الالتزامات والعقود ، وفقه القصاص والتعزيرات والحدود . وأعظم من كل ذلك أن نتعرف إلى سنن الإسلام فى أهدافه المثلية وتوجيهاته المتعلقة بكيانه ومقاصده ومراميه . إن هاتين الأمانتين : أمانة إعداد الجيل الآتى ، وإعداد النظام له ، إذا استطعنا القيام بهما فى عشرين سنة كان هذا أعظم عمل قام به المسلمون منذ ألف سنة إلى الآن . ولن يستطيعوا أن يقوموا بذلك إلا بعد تصحيحهم الأخطاء المدسوسة على التاريخ الإسلامى فى صدره الأول ، وبعد أن يتفرغ عشرات كثيرة من شبابهم للتخصص العلمى الدقيق فى فروع المعارف الإسلامية ، والبدء بكل شىء من أساسه الأول ، بشرط أن يكون للواحد منهم خطة إسلامية صحيحة مرسومة تتفق مع مبادىء السلف ، ونضمن بها الوصول إلى أهداف يلتقى عندها آخرنا بأولنا ، فيتم بذلك البعث الذى ننشده .

وكل محاولة لا تكون بهذه النية ، ولهذا الشوط البعيد وبهذا القصد السديد ، وعلى هذه الطريقة الاسلامية المثلى ، فإنها تكون حينئذ لمصلحة فرد أو أفراد ، أو بعقلية الأحزاب كما كان يعرفها الناس فى جاهليتنا القريبة : أى إلى ما قبل أربعة أشهر . وهذا أمر لا يمتّ إلى البعث الإسلامى بأية صلة . ولمن شاء من المسلمين ومن الإخوان المسلمين أن يفعل منه ما يشاء بشرط أن يكون على علم بأن الحكم الإسلامى لا يقوم إلا بالطريقة التى وصفتها ، وفى الوقت الذى يتحقق به نجاح تلك الطريقة .

« . . . أقيموا دولة الإسلام فى صدوركم تقم فى أرضكم »

حسن الهضيبى

نحو مجتمع إسلامي :

المستقبل للإسلام

(٢)

للأستاذ سيد قطب

إن الشيوعية تكتسح أوربا اليوم وسوف تكتسح أمريكا غدا ، لا لأن مواردها المادية أكبر ، ولا لأن مقدرتها الإنتاجية أعظم ، ولا لأن تقدمها العلمي أكبر . . . لا لواحد من هذه الأسباب المادية جميعا ؛ ولكن لأنها تملك أن تعطي الغربيين فكرة عن الحياة ، أو هدفا للحياة ، لم تعد الحضارة الغربية تملك أن تعطيهم نظيره . فهي فكرة « تقدمية » بالقياس إلى الحضارة الغربية المادية : أي أنها تسمح بامتداد الحياة في ظلها حينا من الزمن ، على حين تعجز فلسفة الحياة الغربية عن الامتداد وتعجز الحياة في ظلها عن التقدم .

ولكن الشيوعية كما قدمنا فكرة ينتهي تحقيقها في أمد قصير ، وتصبح هي الأخرى عاجزة عن الامتداد ، وتصبح الحياة في ظلها عاجزة عن التطور ، حتى في هذه الرقعة من الأرض ، التي تدين بالأفكار المادية عن الحياة . فكيف بها في الرقعة الأخرى التي نشأت في ظل حضارة ذات روح ، والتي تملك فكرة عن الحياة أكبر وأشمل من فكرة الشيوعية ، وأكثر قابلية للامتداد والتطور ، لما فيها من مرونة وسعة لا تتوافران للفكرة الشيوعية ، بحكم ماديتها ، وحكم تحديد أهدافها ، وقصور هذه الأهداف عن أن تشمل كل مطالب الإنسانية في مستقبلها ؟ .

إن الشيوعية اليوم تؤدي دوراً هاما في عالم الحضارة الغربية المادية — يتلخص ذلك الدور في ابتلاع حطام الفكرة المادية التي عاشت أوربا في ظلها منذ الدولة الرومانية القديمة ، حتى استحالت أخيراً إلى هذا العقم ! ابتلاع هذا الحطام والوصول به إلى نهايته الحتمية الطبيعية . والشيوعية هي الخطوة الأخيرة والنهائية في خط سير الحضارة المادية . وهي تعترف بأنها الحلقة الأخيرة من حلقات « المادية الجدلية » وخلاصتها أن كل نظام يحمل في طياته من التناقضات ما يقضي عليه ، وينشئ نظاما جديدا قائما على انتصار

إحدى هذه المتناقضات — وهذا النظام الجديد يحتوى بدوره متناقضات أخرى تقضى عليه وهكذا ... إلى أن ينتهى الأمر إلى الشيوعية ، فتكون هى خاتمة المطاف !

ولقد كنا حريين بأن نصدق هذا ونؤمن به ، لولا أننا نؤمن بأن الحياة متجددة أبدا ، متطورة أبدا ، وأنها لن تقف عند الخطوة التى يريد الشيوعيون لها أن تقف عندها ! فلابد من فكرة أخرى تسمح للبشرية بالامتداد فى ظلها ؛ لأن هذه البشرية لا تستغنى أبدا عن فكرة تؤمن بها ، وتجاهد لتحقيقها .

لقد كانت الدفعة المادية العنيفة التى انتهت بالشيوعية فى الحضارة الغربية وليدة رد الفعل العنيف لتزمت المسيحية كما صورتها الكنيسة فى القرون الوسطى ، وكان إلحاد العلم بالدين رد فعل كذلك لسلوك الكنيسة مع العلماء ، وليس قانوناً من قوانين الحياة !

فإذا انتهت الموجة المعارضة إلى غايتها — وهى الشيوعية — فإن البشرية ستعود بعد الموجتين إلى نوع من الاعتدال والتوازن ، لا تجده فى روحانية المسيحية الخيالية ، ولا فى مادية الشيوعية الجامدة ؛ ولكن فى فكرة وسط عن الحياة : فكرة تحتضن الروحية الصافية الصادقة ، وتحتضن الواقعية المادية المعتدلة ، وتصوغ منهما عقيدة للضمير ونظاماً للحياة ، وأحلاماً دائمة للبشرية كلما حققت منها حلما ارتقت فى الأفق إلى حلم جديد .

والفكرة الوحيدة التى عرفتها البشرية ، وتتحقق فيها هذه السمات التى أسلفنا هى فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان(١) .

ولقد كانت أوربا حرية بأن تستمتع بثمار تلك الفكرة منذ أجيال ، لولا أنها — لأسباب تاريخية — وقفت لها بالمرصاد فى إبان مدها الأول ، عندما وصل الإسلام إلى حدود البرانس ، ولم تكتف بهذا بل ساقها التعصب العنيف إلى طردها طردا قاسيا من الأندلس .

ولعل هذا كان لأمر يريده الله . فالبشرية ما كانت قد تهيأت كلها لاستقبال هذا النور والانتفاع به فى أول فيض . ولم يكن لها بد من تجارب طويلة ، ومن رد فعل عنيف للتزمت الأول والجهالة الأولى ، يقذف بها فى عالم المادة بعنف ، لتبدع فى هذا

---

(١) صورّت هذه الفكرة إجمالا فى كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » وموعدى بتفصيلها كتاب مستقل عنها بعون الله .

العالم ماشاء الله أن تبدع ، ولتهيأ بتجاربها الروحية ، وبتقدمها العقلى ، وبفتوحاتها العلمية ، لاستقبال ذلك النور فى دورة أخرى من دوراته ، وموجة تالية من أمواجه ، بعد أن تكون قد انتهت فى الحقل المادى إلى ذلك الخواء الذى تستشعره فى الحضارة المادية ، فتعوذ منه — إلى حين — بالشيوعية لتعانى منها بعد فترة خواء أعظم ، وظمأ أعنف وشوقا إلى توازن معتدل ، بعد الأرجحة العنيفة بين الروحانية الغالية ، والمادية الطاغية وبعد طول التعلق فى الهواء بين الأرض والسماء !

وعلى أية حال فنحن لانشك فى أن قيادة البشرية صائرة إلى الإسلام ، لأنه لولم يكن موجوداً ، لبحثت عنه الإنسانية ولابتدعت نظاما يشبهه ، بعد انحسار الموجتين السابقتين ، اللتين كانتا على طرفى نقيض ، وكانت ثانيتها رد فعل عنيف لدفعة الأولى العنيفة. وقد انتهت موجة المادية العنيفة إلى غايتها أو أوشكت . وما هى إلا أن تجتاح الشيوعية ما تبقى من رقعة الحضارة الغربية ، حتى تصل إلى ذروة مدها العليا ، وحتى تفتش البشرية بطبعها عن زاد جديد ، ينقذها من الخواء الروحى الذى لا تطيقه فطرتها إلا إلى أمد محدود .

مما تقدم تتبدى لنا ضخامة الواجب الذى ينتظر العالم الإسلامى . إنه واجبه للبشرية كلها فى أحرج أوقاتها . فهذه البشرية التى أوصدت أبوابها فى وجه هذا الدين يوم أن جاءها فى موجته الأولى ستصبح فى أشد حالات اللهفة لمن ينقذها من الخواء ، ويقدم لروحها الزاد ، وهى أقدر على إدراك فكرة الإسلام مما كانت يوم أوصدت دونه الأبواب . وواجب العالم الإسلامى إذ ذاك هو إمدادها بذلك الزاد فى الصورة التى تتفق مع تجاربها كلها خلال أربعة عشر قرنا .

إنه واجب ضخم يقتضى التهيؤ له منذ اليوم والاستعداد . ولما كانت النفس الإنسانية بفطرتها ميالة لأن ترى الفكرة من خلال الواقع ، وتتمثل العقيدة فى صورة عمل ، وتحكم على المثل والمبادىء بما حققته فى عالم الأرض من نظم وأوضاع . فإن البشرية يوم تتطلع إلى فجر جديد ينقذها من ظلام المادية وجفافها ، ستبحث عنه فى صورة مجتمع إنسانى ، لا فى صورة نظريات مثالية . . وهنا يبرز الواجب الذى تلقيه السماء على عاتقنا . واجب أن نكون نحن أنفسنا تأويلا حيًّا لعقائدنا وأفكارنا ، وأن يكون نظامنا الاجتماعى ترجمة عملية لهذه العقائد والأفكار كيما يقع عليها نظر الإنسانية الحائرة فى اللحظة التى تتلفت فيها إلى نبع جديد .

هنا كذلك تبدو ضخامة الجريمة الإنسانية التى يرتكبها أناس من الشرق والغرب

حينما يحاولون صرفنا عن منابعنا الأصلية ، لنتمرغ فى حمأة المادية البائسة وهى فى أيامها الأخيرة .

إن هؤلاء لا يؤذوننا نحن فقط ؛ إنما يحاولون حرمان البشرية ذلك النبع الوحيد الباقى الذى يمكن أن تثوب إليه عند ما يبلغ بها الظمأ إلى غايته ، وحينما تسير إلى نهاية الدرب المظلم المغلق ، فترتد باحثة عن النور فى أفق طليق .

وكل حجتهم أن المادية هى التى أنشأت الحضارة الصناعية . . كأننا يوم أن نثوب إلى عقيدة سنحطم المصانع والمعامل ، ونهجر المدن والدور ، ونرتد إلى الكهوف والمغاور ، أو نركب الأفيال والجمال ! وهى سذاجة مضحكة لولا أنها تتلبس فى الغالب بسوء النية وفساد الضمير !

إن الإسلام بالذات كان ثورة تحريرية . حررت الفكر كما حررت الروح . حررت الفكر من الوهم والخرافة ووجهته إلى تنمية الحياة فى الأرض ، دون تخوف من الطبيعة التى عقدت بينه وبينها أواصر الصداقة والقربى وصورتها له عونا مساعداً لا عدوا مناوئاً . وحررت الروح من الهبوط والتردى وأطلقته يرتاد الآفاق العليا وجذب الحياة كلها إليها . لذلك نمت الحياة فى ظله نموا سريعاً ، ومن هذه الحياة النامية فى ظله استمدت أوربا فى جهالتها ، وأقامت الأساس الذى نهضت عليه حضارتها . .

كل ما فى الإسلام من ميزة أنه يشد هذه الحياة النامية على الأرض إلى آفاقها العليا فى السماء ، كى لا تتردى فى حضيض المادية المطلقة ، فتصاب بالجفاف والخواء الذى انتهت إليه حضارة الرجل الأبيض ، وهى فى أوجها من الناحية الصناعية والإنتاجية !

ولقد فتح الإسلام فى موجة المد الأولى ما شاء الله أن يفتح من الأقطار والأمصار باسم هذه الثورة التحريرية التى كان يحمل لواءها ، لا بقوة السيف الحديدية أو قوة الاقتصاد المادية . وما كانت هذه القوة وحدها لتنساح به فى فجاج الأرض بمثل هذه السرعة التى لا تبلغ إلى شىء منها سرعة الاجتياح «الهتلرى» فى العهد الأخير ، مع التفوق الساحق للجيوش «الهتلرية» فى بدء الحرب سواء فى السلاح أو فى الرجال أو فى الخطط الحربية ، هذا التفوق الذى لم تكن جيوش الإسلام تتمتع بشىء منه ، فيما عدا بطولة الروح دائما ، وعبقرية القيادة فى بعض الأحيان .

أما التفسير الطبيعى الشامل لقوة انسياح الإسلام ، فهو كامن فى طبيعة هذه العقيدة ، وفى طبيعة النظام الذى ينبع منها . فى تلبية هذه العقيدة للفطرة البشرية تلبية كاملة وفى الثورة التحريرية التى تمثلها . فى ذلك الزاد التقدمى الذى تحمله للانسانية وتلبى به رغبتها الدائمة فى التطلع إلى تحقيق حلم بعد حلم فى واقع الحياة .

ولقد كان رجال وقواد وشعوب ينضمون إلى جبهة الإسلام راضين متطوعين ، لما كانوا يلمسونه من العدالة والتوازن فى ظل النظام الإسلامى الذى طبق فى بلاد مجاورة ، ومن التحرر الوجدانى والاجتماعى السائد فى هذا النظام .

يقول « سير . ت . و . أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » ص ٥٣ من ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله نقلا عن الأزدى ص ٩٧ :

(ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحل ، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد يقولون : « يا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا »)

ويقول فى ص ٥٤ من تلك الترجمة نقلا عن البلاذرى ص ١٢٧ :

« وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم »

ولم يكن العدل والحرية وحدهما هما اللذان يدفعان بالجموع إلى هذا الدين الجديد بل كانت الفكرة الواضحة البسيطة التى يحملها إلى الناس فى صورة عقيدة تدفعهم إلى فتح أبوابهم له ، ولو لم يعتنقوه لسبب من الأسباب الخاصة . المهم هو الثقة بهذا الدين ونظامه ، واليأس من النظم الأخرى التى كانت سائدة فى زمانه . وفى ذلك يقول : « ج . ه . دينسون » فى كتابه Emotions as the Basis of Civilisation (العواطف كأساس للحضارة) :

« ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على جرف هار من الفوضى ؛ لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ؛ إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . . واقفة تترنح ، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » (١) .

***

(١) عن كتاب الإسلام والنظام العالمى الجديد لمولاى محمد على ، ترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

نحن الآن فى موقف قريب الشبه بذلك الموقف الذى وصفه الكاتب فى القرنين الخامس والسادس . وإذا كانت المسيحية قد استنفدت أغراضها وصارت إلى ماصارت إليه فى ذلك الأوان ، فهى اليوم أعجز من أن تكون عاملا إيجابيا فى حياة البشرية . وهى مع ذلك أرقى العقائد الأخرى التى تعرفها البشرية اليوم . وإذن فلا يبقى إلا الإسلام ليعمل من جديد ، كما عمل فى القرن السادس ، يوم أن تلجأ البشرية إليه ، هاربة من الخواء الذى تحسه اليوم بقوة فى الحضارة الغربية ، فتهرب منه إلى الشيوعية ، التى ليست سوى الامتداد الطبيعى لهذه الحضارة ، وليست إلا « تصبيرة ! » لمدى قصير . حتى فى أرض الحضارة المادية كما أسلفنا .

وإذا كان فساد العقائد وفساد النظم فى القرن السادس قد جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا لجفاف الحضارة المادية وخواؤها ، وعجزها عن إمداد البشرية بأهداف تعيش من أجلها ، وأحلام تقود خطاها فى مصاعد الحياة .. سيدفع بالناس من جديد إلى الإسلام ، متى وجدوه مبلوراً فى نظام ، ممثلا فى مجتمع ، مترجما فى حياة .

وهذا هو واجبنا فى هذا الجيل ، وفى الجيل الذى يليه . فأقصى مدى أتصوره للمد الشيوعى لن يتجاوز جيلنا هذا الذى نحن فيه وأوائل الجيل القادم ، إذا سارت الأمور سيرتها الحالية . ولن يكتمل هذا القرن العشرون الذى نحن فيه حتى تكون الشيوعية قد سيطرت على عالم الحضارة الغربية بما فى ذلك أمريكا .

وعندئذ ينتهى صراع الشيوعية والرأسمالية ، اللتان هما خطوتان فى فكرة واحدة هى الفكرة المادية . لا فكرتان مختلفتان ،كما تحاول كلتاهما أن تزعم فى معرض الدعاية .. وعندئذ يبدأ الصراع الحقيقى بين الفكرتين الرئيسيتين فى العالم : الفكرة الإنسانية — ويمثلها الإسلام — والفكرة المادية — وتمثلها الشيوعية فى آخر مراحلها ، كما مثلتها الدولة الرومانية ومثلتها أوربا وأمريكا بكافة النظم التى سادت فيها — وفى نهايتها هذا النظام الشيوعى ... ونحن لانشك فى النتيجة الأخيرة لهذا الصراع . ولا نرتاب لحظة فى أن العاقبة للاسلام ، بحكم أنه فكرة تسمح للحياة بالنمو الدائم فى ظلها ، ولاتحدها بهدف واحد محدود «سيادة طبقة» ، وبحكم أنه نظام يسمح لجميع قوى الإنسانية أن تعمل ، ويمنح الزاد المناسب لكل جوعة من جوعاتها : فكرية كانت أو روحية أو مادية ، وبحكم أنه نظام عالمى يمكن للبشرية كلها أن تستظل بلوائه . والفكرة الأكبر هى التى تنتصر ، والنظام الأشمل هو الذى يبقى .

(للبحث بقية)

خاطرة

؟ !

حين تكون الأزمة أزمة رأى ، وخلافا فى أمر واضح محدد ، لا يصعب أن تعالج ، ولا تلبث أن ينهيها الرأى الراجح المسدد ، فإن تباين الآراء سمة الفكر الحى ، وبرهان التعاون العميق ، وهو السبيل الى تكشف وجوه الخير والشر فى كل مسألة ، وتبين النفع والضر فى اختيار الطريق . . . . وأزمة الرأى دائماً أزمة سافرة المعالم ، بينة المدخل والمخرج ، إذا عرف أولها فهم آخرها ، والسبيل بين أولها وآخرها الحجة والفهم ، وآخرها لا يعدو خطره أن يصر كل على رأيه ، وهو خطر محدود ما دامت الأنفس سليمة ، وما دامت الطويات مستقيمة ، فإن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية .

وإذا صح هذا فى الدائرة الواسعة بين سائر الناس فهو أصح وأولى فى كل مجموعة تربطها من وراء العقل آصرة العقيدة والروح ، ويحكم حركاتها نظام تبايعت عليه ، وتعاهدت أن يجعل كل واحد فيها لعقله الصغير لجاما من عقل المجموعة الكبير . . . . « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . . .

***

أما حين تكون الأزمة أزمة نفسية سببها التواء بعض الأنفس على ظن غير حسن ، أو وهم خادع ، أو هوى مستتر ، فإن اختلاف الرأى حينئذ لا يكون هو كل شيء فى المسألة ، وأخطر ما فيه أنه قد يلتوى سبيله بالتواء هذه الأنفس ، فيصور فى غير صورته ، وينتقل من الحجة والإقناع إلى الحيلة فى الخفاء . . . . بل ربما كانت أزمة الرأى حينئذ أزمة مفتعلة تتنفس فيها بعض الأنفس المتعبة . . . .

وإذا كان هذا خطراً فى الدائرة الواسعة فإنه أشد خطراً وأنكى أثرا فى كل مجموعة تميزت بالحب الناصع الحار ، والخلق السامى الكريم ، والنظام المحكم المتين .

***

وإذا كان علاج أزمة الرأى فى تبادل الآراء والنزول على الرأى السديد ، فإن دواء الأزمة النفسية لا يكون إلا فى تجاوب هذه الأنفس وإزالة كل حجاب بينها . . . . إن سوء الظن والوهم يعالجهما الاتصال المباشر ، والتثبت من كل شائعة ، والتزام النظام ، والحذر الدائم من أعداء الحق المتربصين ! . . . . . أما الهوى المستتر فدواؤه فى أحد أمرين : إما أن يتوب صاحبه إلى الله توبة نصوحا ، أو ينطوى على نفسه بعيدا ويفسح للطيبين الطريق .

***

يا جند الله : أنتم والحمد لله كثير ، وأنتم وحدكم أعصاب هذا الجسد الجديد . . . . . فامضوا على بركة الله غير عابئين ، وطاردوا العبث بالجد ، والظلمة بالنور . ونور الله لا توزعه المصابيح ، ولكن تحمله قلوب الموصولين به : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

الدين والمجتمع

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

تمر الأمة الإسلامية هذه الأيام بفترة من حياتها الخالدة يكثر فيها الحديث عن الدين؛ فمنا من يدعو في إلحاح إلى أن الرجوع إليه صار ضرورة لامناص منها ، بعد أن قاسينا الأمرّين من الانحراف عنه زمنا طويلا ، وبعد أن أظهرنا قانون التطهير على ما صرنا إليه من انحلال في الخلق وفساد في الضمير وبُعد عن سواء السبيل إلى أقصى الحدود. على حين أن هناك آخرين لهم خطرهم ، ينادون بأن من الخير التحرر من الدين وتعاليمه كثيراً أوقليلا فيما نتخذه لأنفسنا من نظم وتقاليد.

وقد كثر الحديث في ذلك هنا وهناك من أقطار العالم الإسلامي حتى صار مملولا لاغناء فيه . بل إننا نحس دعوة قوية تأتينا من الغرب للعودة إلى الدين ، بعد ماثبت من فشل النظم والفلسفات الأخرى في علاج مشاكل العالم ، بل بعد أن ثبت أن هذه النظم والفلسفات السياسية والاجتماعية زادت هذه المشاكل تفاقما ، وزادتها مشاكل أخرى لها حدّتها وأخطارها على الكيان العالمي كله

أجل إن ضعف الدين في أوربا ، وما كان من نتيجة حتمية له من ازدهار المادية في كل نواحي الحياة ، وقيام الحياة على هذه المادية في الفلسفة والعقيدة وسائر النظم الحيوية ، مكن للأثرة والأنانية في النفوس ، وأطلق لها العنان فصارت هي الحاكم المطلق ، وكان أن انحلت عرى الأخلاق عروة بعد عروة ، الأخلاق التي تستند إلى الضمير وما هو روحي وجميل ونبيل في الإنسان ، وأن اعتقد كل إنسان — ومثل ذلك كل دولة — أنه محور الحياة فما خلق العالم إلا من أجله ، وعمل الجميع على استغلال القوة والنفوذ والسلطان لمنفعته وحده وإن جرّ هذا إلى شقاء المجتمع والأمة

ومن أجل هذا توالت الحروب والثورات ، وأخذ العالم يدمر نفسه بنفسه ، وصار قادته يسوقونه للخراب وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ! وليس مرد ذلك كله إلا إلى إهمال الدين وهو العامل الأول لقيام المجتمعات والدول الصالحة للحياة الحقة السعيدة ، ونبذ الأخلاق الطيبة التي مبعثها قوى النفس النبيلة القدسية ، وبدونها يكون الإنسان شيطانا مريدا يعمل على تدمير نفسه والعالم كله .

حقا إننا نسينا جميعا ، هناك فى الغرب وهنا فى الشرق ، أن الدين هو القوة الفعالة التى خلقت من العالم المتنافر والتمزق فيما مضى عالما جديداً قويا متماسكا ، وأرسى قواعد الحضارة على أسس قوية متينة صالحة للبقاء ، وجعل للناس غاية يعملون لإدراكها متعاونين متحابين ؛ ماداموا جميعا إخوة وليس لهم إلا إله واحد كل العالم معبد له ، لا فضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى ، وبمقدار ما يقدم من خير لإخوته فى الدين والإنسانية .

وكان للاسلام من بين الأديان جميعا الفضل الأكبر فى ذلك كله ، ولا عجب ! فمن أصوله أنه لافضل لعربى على عجمى إلابالتقوى كما يقول رسوله الكريم ، وجاء فى قرآنه العظيم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . إلى آيات وأحاديث أخرى لاحصر لها ، وكلها تحض على التقوى والعدالة بالنسبة للفرد والمجتمع ، ووجوب اتباع العقل وهدى الضمير النقى الذى لم تنحرف به الأهواء والشهوات عن الطريق السوى ، وتصوير الدنيا بأنها متاع زائل وبلاغ لحياة خالدةأفضل .

إن مصر بلد إسلامى كما يقول الدستور ولكنها — إذا نظرنا إلى الجمهرة الغالبة من ولاة الأمور وذوى الرأى — ليست بلدا متدينا إن أردنا بالدين معناه الحقيقى ، هذا المعنى الذى يتمثل فى التربية القويمة والخلق القوى اللذين ينشئان رجالاجديرين بوصف الرجولة ، ومواطنين يعملون لخير الوطن والإنسانية بعامة .

لو كانت مصر بلداً متدينا ، أو لو كان ولاة الأمور فيها فى العهود الماضية متدينين ، لما رأينا المخازى والمنكرات التى تطالعنا بها الصحف منذ شهور وشهور ، والتى انغمس فى حمأتها وأقذارها رجال العهد السابق من حاشية الملك المخلوع ومن إليهم ممن جعلهم الزمن كبار رجال الدولة والوطن ! لو كانت مصر بلداً يعرف للدين حُرْمته ، وأنه العامل الذى لا غنى عنه لقيام الدولة والأمة ، لما كنا بحاجة « لقانون التطهير » الذى نرجو أن ينال بالعقاب الأليم الرادع أولئك الذين خانوا الأمانة والدين والوطن ، وداسوا بأقدامهم كل كرامة وخلق ومعنى نبيل جليل !

إن الدين يأمر بعبادة الله وحده دون أحد من خلقه مهما عظم أمره وكبر سلطانه ، وبالعبادات التى تزكى النفس وتطهر القلب وتحبب فى المثل العليا . ولكن نقصد به ، إلى جانب ذلك كله ما يزرعه فى قلب المؤمن به من العقيدة الحقة والضمير القوى ، هذا الضمير الذى هو منبع الأخلاق وحارسها والدعامة التى تقوم عليها ، والذى هو

قبس من نور الله كما يقول الغزالى ومِسْكوَيه ، وهو الذى يخاطبه جان جاك رُوسُّو فيقول :

«أيها الضمير ، أيتها القوة الفطرية الخالدة ، أيها الصوت السماوى ، أيها القائد الأمين للانسان الجاهل المحدود ، أيها القاضى الذى لا يضل فى تمييز الخير من الشر ! إنك أنت أشرف جزء فى طبيعة الإنسان ، وإنك الفضيلة من أعماله . بدونك لا أشعر بما يرفعنى عن الحيوان ، ما عدا الميزة التى تجعلنى أضل فى ميدان الأخطاء ؛ وهى أداة الفهم التى لا قاعدة لها ، والعقل بدون مبادىء يسير عليها » .

وقد عرف الفلاسفة والمفكرون الاجتماعيون للدين أثره القوى فى الأخلاق ، وأنه منها الدعامة التى يقوم عليها البناء ، ولذلك عندما حاول فريق منهم ، على رأسه « إميل دور كايم » ، إقامة الأخلاق على العقل ، لا على أصول الدين ومسلّماته ، رأوا أنه قبل أن تنزع من الأخلاق ما تستند إليه من الدين فيجعل لأوامرها ونواهيها قداسة أى قداسة ! يجب أن نجد للأخلاق دعامة أخرى تسدُّ مسدَّ الدين ، حتى يبقى للتشاريع الأخلاقية قوتها وقداستها . ولكن ، هيهات أن يجد هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيون قوة أخرى ، غير الدين ، تكون أساسا للأخلاق !

***

هذا ، ومن هم المسئولون عما صرنا إليه من هذا الحال المخجل الأليم ؟ وما السبيل للخروج من هذه الحياة الماجنة الآسنة الضالة إلى الحياة الجادة الدافقة الرشيدة ، الحياة الجديرة بأمة يقول عنها القرآن إنها خير أمة أخرجت للناس ؟

لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا بأن المسئولين فى الدرجة الأولى عن هذا كله ، هم القَوَمة على معاهد التعليم فى الأزهر ووزارة المعارف والجامعة ، إن هؤلاء الذين إليهم مقاليد التربية والتعليم فى معاهدنا ، لم يخرجوا لنا ، بما اتخذوه من أهداف واصطنعوه من وسائل ، الشباب القوىّ بدينه وخلقه والمعتز بنفسه وكرامته .

إن هذا التعليم قد أفلح فى تخريج أجيال من الشباب ليس منهم ، إلا من عصم الله ، إلا من هو — كما يقول شاعر الإسلام محمد إقبال — مصقول الوجه ، مظلم الروح مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كبير اليأس . إن هؤلاء الشباب ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، لأن المدرسة أو المعهد قد نزع منهم العاطفة الدينية ، فأصبحوا وقلوبهم قاسية ، وعيونهم لا تعف عن المحارم ، وقلوبهم لا تذوب بالقوارع ،

وكل ما عندهم ، من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب ، يطوف حول الماديات ؛ فأفكارهم لا تساوى شيئاً ، وحياتهم جامدة متعطلة واقفة !

وليس من سبيل للخروج من ذلك ، إلا بأن تقوم ثورة فى الأزهر والجامعة ووزارة المعارف ، تصاحب الثورة الكبرى المباركة التى خلصتنا من العهد البائد المقيت ، والتى أقام الله تعالى بها دليلا حسياً على وجوده غير الأدلة التى تزخر بها كتب التوحيد . هذه الثورة تقوم على العهد الماضى فى التعليم : أهدافه وغايته ووسائله ، وتضع للتربية والتعليم غايات مجيدة شريفة ووسائل أخرى فعالة لتحقيق هذه الغايات ؛ وبهذا تكون وزارة المعارف للتربية والتعليم معا ، لا للتعليم فحسب كما هو الحال الآن .

وهذه الثورة التى ندعو إليها ، يجب أن تكون غايتها تكوين جيل جدير بحمل أمانة الدين والوطن والأمة الإسلامية ، وأن تعمل على إقامة التعليم والتربية على أساس من الدين ومثله العليا والخلق القوى الكريم . نريد من معاهد التعليم والتربية تخريج جيل يرى أن المؤمن الضعيف هو الذى يتعلل بضرورة مسايرة الأحوال الموجوده وإن كانت فاسدة ، والخضوع للأوضاع القائمة وإن كانت مقلوبة . كما يرى أن المؤمن الحق هو قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد . وفى قيام ثورة الجيش ، بفضل بضعة من رجاله المؤمنين المخلصين دليل على إمكان ذلك أى دليل !

نريد من التعليم أن يخرج لنا جيلا من الشباب يمتاز — كما يقول إقبال — بين أهل الشك بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الشهوات والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة ، وبين أهل الأثرة والأنانية بإيثاره وكبر نفسه ؛ فهو لذلك كله يعيش برسالته ولرسالته .

وسيوقن هذا الجيل ، إذا نجحنا فى إعداده وإيجاده ، أنه لم يخلق إلا ليوجه العالم للطريق المستقيم ، لأنه صاحب الرسالة والعلم اليقين ؛ فليس مقامه أن يقلد ويتبع ، بل أن يؤم ويقود . وإنه بمثل هذا الجيل انتشر الإسلام فيما مضى ، وكانت له دولة دانت لها أقطار العالم ، وصار قوة يخشاها العالم كله ويعمل لها أكبر حساب .

أما إن استمر الحال على ما نحن عليه — لا قدر الله تعالى — فسنظل أمة لا خطر لها ، وسيظل الفساد مستشريا فى الأداة الحكومية وسائر مرافق البلد ، مهما أخذ قانون التطهير المجرمين بالنواصى والأقدام . فإن شجرة الفساد لا تزال قوية الجذور ، كثيرة الأغصان والفروع ، وخصبة تعمل دائماً على إكثار المفسدين خونة الوطن والدين .

لذلك أرى أننا بحاجة ، مع ماتقدم كله ، إلى لجنة قوية مختارة من أطيب عناصر الأمة ورجالاتها ، ويكون عملها تطهير العقول من الإلحاد ، والقلوب من الأنانية والشره ، والنفوس من الخوف والجبن والتهالك على متاع هذه الحياة على حساب الدين والوطن وبنيه .

وبعد ! يجب أن يتعاون رجال الازهر ووزارة المعارف والجامعة على ذلك كله ، وعلى جعل الغرض من التربية والتعليم تحصيل العلم الحق وتكوين الخلق الطيب . وعليهم جميعاً أن يعملوا على أن تكون دور العلم باعثة على ذلك بالجو الذى يسود فيها ، والقوى الطيبة والمثل العليا التى تتجسم فى القائمين عليها . والله الموفق للخير ، والهادى إلى الصراط المستقيم .



الإمارة دين وقربة

« . . . فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات ؛ وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . وقد روى كعب بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال أو الشرف ، لدينه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح . فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه ، مثل أو أكثر من إرسال الذئبين الجائعين لزريبة الغنم » .

ابن تيمية « السياسة الشرعية »

من تاريخنا الحديث :

الثورة الوطنية الأولى
الروح الإسلامية تهزم نابليون وجنوده

للدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

كانت « الحملة الفرنسية » أول تجربة للاستعمار الغربى فى بلاد الشرق العربى أو الأوسط فى العصر الحديث ؛ وقد وفدت إلى مصر وعلى رأسها « نابليون » القائد الحربى الشهير بعد أن كتب لنفسه صفحات خالدة فى ميادين الحرب بإيطاليا حيث هزم هنالك جيوش الامبراطورية النمسوية وأذل كبرياء تلك الدولة العتيدة ، وكان من قبل قد نجح فى القضاء على زعماء الثورة الفرنسية ؛ فكان يرجو بقدومه إلى مصر وهى فى جبهة العالم الإسلامى ومفتاح الطريق إلى الهند والشرقين الأوسط والأقصى أن يكسب من الانتصارات الرائعة ما يضيفه إلى صحائف مجده ، وما يجعله يظهر فى نظر العالم كأنه يعيد سيرة « يوليوس قيصر » أو « الإسكندر الأكبر » أو غيرهما من الغزاة الفاتحين

ولكن نابليون سرعان ما خاب أمله ، إذ وجد فى مصر عاملا لم يدخل له فى أى حساب ، إذ قابل الروح الإسلامية والأمة المصرية التى تمثل تلك الروح ؛ وكان شعب مصر بالرغم مما كان يعانيه من أرزاء الفقر وإهمال الدولة لشئونه فى جميع النواحى وتأخر مستواه الثقافى والصحى ، لا تزال روحه المعنوية عالية ولا يزال يعيش فى جو من الاستقلال ويشعر بكرامته ويتذوق الحرية ويقدر قيمتها ؛ وكان ذلك كله مستمداً من المثل الإسلامية التى كان يؤمن ويعتز بها ومبادىء الإسلام السامية التى يستمسك بها ويحاول جاهداً — بالرغم من الصعاب والعقبات — أن يحققها . فكانت نتيجة ذلك أن حبطت أعمال نابليون ، وباءت حملته بالفشل ، ولم يستطع هو أن يبقى فى مصر أكثر من عام أيقن بعده أنه إذا لبث بعد ذلك فسيكون هذا البلد الذى علق عليه أكبر الآمال من قبل قبراً له ؛ فعاد سراً إلى فرنسا . ولم تستطع حملته أن تبقى بعده إلا بقاء

مزعزعاً تهاجمها ثورات الشعب من آن لآخر ، وهى أشبه بأن تكون محصورة ، حتى أرغمت على الجلاء بعدعامين ؛ وعادت إلى مصر حريتها واستقلالها وكانت العوامل الدولية قد جاءت لمساعدة الشعب المصرى فى ثورته المجيدة .

وذلك أن « نابليون » — أو « بونابارته » الكبير كما يدعوه أفراد الشعب المصرى فى ذلك الوقت — وكانت حملته قد وصلت إلى الشواطىء المصرية يوم أول يوليه سنة ١٧٩٨ ، ووقف أهالى الإسكندرية فى وجهه وقفة باسلة ودافعوا عن استقلالهم — بالرغم من أنه لم تكن لديهم معدات للقتال — دفاع المستميت ، حتى إن « مينو » أحد ضباط نابليون كتب إليه فى خطابه يقول : « إن الأهالى دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم » . ذلك أن نابليون زعم عندئذ أنه ما جاء إلا ليحارب المماليك ، وقال فى منشوره الذى وزعه غداة وصوله إلى الاسكندرية : « .. قولوا للمفترين : إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . . . وإنى — أكثر من المماليك — أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . . ! » و « أن الفرنساوية هم أيضا . . . مسلمون مخلصون ! ! ! » إلى آخر هذه المزاعم ، أو أكاذيب النفاق الجريئة !

ولكنه لم يمكث فى مصر إلا قليلا حتى تبين أنه جاء ليحارب المصريين أيضا . وكانت كل أعماله تدل على ذلك :

كان من الأوامر الأولى التى أصدرها « أن كل قرية تقوم على العساكر الفرنساوية تحرق بالنار ! » ؛ وفى نفس الوقت ترك جنوده يعيثون فى الأرض فساداً ، ويعتدون على الأهالى الوادعين . وكان أول عمل له بعد حضوره إلى القاهرة هو تعيين « برطلمى » الرومى — وكانت العامة تدعوه تفكها « فرط الرمان » — نائبا لمحافظ القاهرة ، فكان هو الحاكم الفعلى لأنه معين من قبل السلطات الفرنسية ومحل ثقتهم . وكان هذا — كما وصفه « الجبرتى » — « من أسافل الأروام » ؛ سيىء الخلق مشهورا بالقسوة والفجور ، فكان تسليط هذا الأجنبى الوغد على أهل القاهرة من شر ما فعله « بونابرته » للتنكيل بالمصريين الذين أعلن أنه إنما جاء ليخلصهم من يد الظالمين .

و « برطلمى » هذا أول « حكمدار » للعاصمة يعينه الاستعمار من هذا الصنف الذى شهدت القاهرة من أضرابه كثيرا ، وقاست من أعمالهم وأعمال تابعيهم ما ظلت تعانى آثاره إلى عهد قريب .

ولم يمض على نابليون فى القاهرة بضعة أيام حتى جمع الديوان وطلب منه فرض ضريبة أسماها « سلفة » على تجار العاصمة وأرباب الحرف بها ، مقدارها خمسمائة ألف ريال فقط ؛ وكان قبل ذلك قد فرض على أهل الثغر غرامة حربية كبيرة ثم زادها إلى الضعف . ولم يكن هذا إلا القَـطر الذى يسبق انهمار الغيث : فبعد ذلك توالى طلب الضرائب والسلف وتعددت مقاديرها ، واختلفت مناسباتها ؛ وفرضت على أهل الريف كما فرضت على المدن ، ولم ينج من ذلك حتى النساء : فقد أجبرت السيدة « نفيسة » المرادية — وكانت من شهيرات النساء فى ذلك العصر وذات مكانة رفيعة فى المجتمع — على أن تدفع ما يزيد على ٤٠٠,٠٠٠ ريال ؛ وأرغم غيرها من النساء على أن يفتدين أنفسهن بمبالغ أخرى .

وكانت البيوت تهاجَم وتفتش باستمرار ، بحجة البحث عن دفائن وخبايا أو إحراز أسلحة . وسلط الفرنسيون على الناس لهذا الغرض ولجمع الضرائب نصارى الشوام والأروام وبعض الصيارفة من القبط الذين رضوا أن يتعاونوا معهم ، تساعدهم الجنود المسلحة . فكانوا أول من أثار النعرة الدينية ، وغرس بذور الخلاف بين أبناء الوطن الواحد !

ثم لما أعيت الفرنسيين الحيلة فى جمع المال أنشأوا ما أسموه « محكمة القضايا » أو « التسجيل » ؛ فجعلوا عدد قضاتها أو أعضائها اثنى عشر . وكانت مهمة هـذه المحـكمة — ولم تـكن فى الحقيقة أكثر من لجنة أو إدارة — أن تلزم الناس بتسجيل ممتلـكاتهم ، وأن يقدم كل واحد الحجة التى تثبت ملـكيته . فمن وجد الحجة وجب عليه أن يدفع رسوم القيد ، ثم رسوم التثبيت . ومن لم يجد — وكان هؤلاء أغلب الناس — أصبح للحكومة الحق فى أن تصادر أملاكه وتضع يدها عليها . وقرر « نابليون » أيضا أن ينعقد فى يوم ٥ أكتوبر من ذلك العام ما أطلق عليه اسم « الديوان العام » وهو مجلس استدعى إليه أعضاء من الأقاليم ، ولم يكن المراد منه أن يكون — كما يدعى من لم يفهم أغراض الحملة — نظاما « برلمانيا » أو شوريا . وإنما كان الغرض الحقيقى إعداد الرأى العام لفرض ضرائب جديدة ، وإيجاد أداة لتحصيلها . فبعد أن قرأ خطبة الافتتاح القاضى « ملطى » طلب انتخاب رئيس للديوان ، فتم انتخاب الشيخ « عبد الله الشرقاوى » بالأغلبية ؛ ولـكنها كانت رئاسة صورية . وظل المجلس — بتوجيه ممثلى السلطات — يتناقش فى مسائل تشريعية وقضائية ، وأخيرا أصدر قراره الخطير بفرض ضرائب عقارية على جميع الأملاك ، ثم قسمت الأملاك

إلى مراتب : عليا ، ووسطى ، ودنيا . واتخذت الإجراءات ؛ وعين المهندسون الذين سيقومون بمعاينة المنازل وربط الضرائب عليها وكاد يتم تحقيق كل ذلك — لولا أن فوجىء الفرنسيون بقيام ثورة خطيرة .

أدت هذه المظالم كلها — مضافة إلى مظالم وأسباب أخرى سنشير إليها بعد قليل — إلى انفجار ثورة وطنية خطيرة بالقاهرة فى يوم « ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ » — الموافق ١٠ من جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ — فكانت الثورة إعلانا للسخط العام على الحكم الأجنبى ، وتعبيراً عن الشعور القومى ؛ وإيذاناً لنابليون بفشل سياسة وقرب نهايته !

وقد كان من بين الأسباب الأخرى الاستيلاء على الأوقاف ؛ وقطع الرواتب عن مستحقيها ؛ والاعتداء على الحرية الشخصية ، وانتهاك حرمات المنازل ، وتجريد العاصمة من الأسلحة ، وتعريضها للهجوم باقتلاع أبواب الحارات والدروب ، واستبداد « برطلمى » الظالم .

كما كان فى مقدمة الأسباب سياسة القمع والإرهاب : إذ أصدر نابليون تعليماته لرجاله فى الأقاليم بالتنكيل بالزعماء الوطنيين ، وإخماد كل معارضة . وأمر هو فى القاهرة بإعدام السيد « محمد كريم » حاكم الإسكندرية السابق الذى دافع عنها دفاع الأبطال ، حتى شهد له الفرنسيون أنفسهم بالشهامة والشجاعة ؛ فلم تقبل فيه شفاعة ! ونفذ فيه حكم الإعدام فى يوم ٦ سبتمبر ؛ إذ صعدوا به إلى القلعة « وكتفوه وربطوه مشبوحا » — كما يقول الجبرتى — « وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ؛ ثم قطعوا رأسه ، وطافوا بها ! » كما قُتل كثير غيره . على أن السبب الأول والأخير للثورة كان هو الأنفة من الرضا بحكم الغاصب ، والشعور بالكرامة الوطنية . وهذا الشعور موجود منذ قدوم الحملة إلى البلاد : ظهر فى هبوب الإسكندرية للدفاع عن نفسها دون أى تدبير سابق ، كما ظهر فى احتشاد أهل القاهرة عند ساحل « بولاق » للاشتراك فى المعركة التى كان متوقعا أن تحدث هناك ، كما ظهر فى المقاومة المستمرة التى كانت تواجه بها الحملة أنىّ رحلت أو أقامت . وإذا كانت موقعة « إمبابة » قد انتهت بين نابليون و « المماليك » فإنه كان عليه أن يعد نفسه لخوض معارك عديدة تنشب بينه وبين الأهالى العزل من السلاح : فحدثت مواقع فى المنصورة والجمالية وفى رشيد وطنطا ودمنهور وفى قرى صغيرة كسنباط والشعراء وفى كل مدينة من مدن الوجه القبلى . وكانت الاضطرابات تنتشر من مديرية إلى أخرى ؛ وظهر

زعماء المقاومة فى كل مكان . ولقد قال أحد كبار مهندسى الحملة « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد ؛ وكان مركزهم فيها مزعزعا ، ومحفوفا بالمتاعب ؛ ولم يترك الأهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها . وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة ! » .

وكان هذا الشعور الوطنى نتيجة الروح الدينية القوية ، التى كانت من أظهر مميزات هذا العهد ؛ إذ أن المسلم ، ودينه يغرس فى نفسه معانى العزة والكرامة ، يأبى أن يذل لغير الله ؛ أو يخضع لحكم الأجنبى !

وقد نظر المصريون أول ما نظروا لقائد الحملة وجنوده على أنهم أبناء أولئك « الفرنسيس » الذين حاولوا أن يغزوا مصر أيام الحروب الصليبية ، فباءوا بالفشل ، وأدت إحدى حملاتهم إلى أسر مليكهم « لويس التاسع » وسجنه فى دار ابن لقمان ! ولم تتغير هذه النظرة فى جوهرها أثناء مقام الحملة ، بالرغم من اختلاف الأحوال فى مصر عما كانت فى ذلك العهد ، فظلوا يناوئون بكل الوسائل — وإن كانت ناقصة — حتى استطاعوا ، مثل أسلافهم ، أن يخرجوا الغاصب ، ولو بعد حين ، ويجلوه عن بلادهم .

وكانت ثورة القاهرة إحدى الثورات التى انبعثت عن كل هذه المشاعر ؛ كما كانت كل الثورات التى تلت بعد ذلك .

واستعرت نيرانها فى الأحياء الوطنية ، كالحسينية والجمالية والغورية ، وكان مركزها العام « الجامع الأزهر » — ندوة مصر النيابية الكبرى فى ذلك الوقت — الذى اتخذ الثوار منه معقلهم الحصين ، وسدوا كل الطرق الموصلة إليه بالمتاريس . وقد بدأت الحركة فى فجر ذلك اليوم بمظاهرة كبيرة توجهت إلى « بيت القاضى » لتعلن الاحتجاج على فرض الضرائب الجديدة ، وغير ذلك من المظالم . ولم تنقلب إلى ثورة دموية إلا حينما حضرت القوات الفرنسية ، واعتدى « برطلمى » على الأهالى بإطلاق الرصاص . فهاجت الجموع المحتشدة ونشبت معركة عنيفة بينها وبين فرسان الفرنسيين أسفرت عن مقتل الجنرال « ديبوى » قومندان القاهرة !

ثم انتشرت الثورة فى جميع أنحاء العاصمة ؛ وهاجم الأهلون معسكرات الفرنسيين وحاولوا الاستيلاء عليها . وقتل من الفريقين عدد كبير . كما قُتل فى اليوم الثانى « الكولونل سلكوسكى » ياور نابليون ، فى إحدى المعارك . وأوشك أن يفلت الزمام من يد القيادة الفرنسية ! فلم ينقذ الموقف إلا أن أمر نابليون بنقل المدافع تحت جنح الظلام ؛ ونصبها على تلال المقطم المشرفة على

مراكز الثورة ، فظلت تضربها ساعات متواصلة . وأرادوا — بصفة خاصة — هدم الجامع الأزهر الذى كانت الجموع محتشدة فيه ؛ ولكن الله أراد أن لا يمس بسوء ! . فبهذه الطريقة وحدها استطاعوا أن يسيطروا على الحالة وتحت حماية المدافع نفذت الجنود إلى الأحياء الوطنية التى عجزت عن اقتحامها من قبل ؛ ودخلوا إلى الجامع الأزهر وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فيه « وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع ! » ثم لما هدأت الحال عمدوا إلى الانتقام من أهل القاهرة بدون تفريق وبصورة وحشية تدل على مبلغ ما وصل إليه هؤلاء الفاتحون من الحضارة والمدنية التى زعموا أنهم جاءوا لينقلوها إلى مصر ! !

فقتل من أهل القاهرة — باعترافهم — ما يزيد على أربعة آلاف ! ! وقبضوا على كثيرين ، وأعدموهم سراً بالقلعة ، بدون محاكمة . وبينهم عدد كبير من النساء ! وبحثوا عن زعماء الثورة ، فاتهموا خمسة من العلماء . وبعد أن حبسوهم أكثر من عشرة أيام وأجروا معهم محاكمة صورية ، حكموا عليهم بالإعدام ؛ فنفذوا هذا الحكم فى يوم ٤ نوفمبر ١٧٩٨ . ويصف « الجبرتى » حادث استشهادهم . فيقول : « وذهبوا بهم إلى بيت قائمقام بدرب الجماميز . . فلما وصلوا بهم هناك جردوهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ؛ فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ، وألقوهم من السور خلف القلعة ؛ وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياما » .

فهؤلاء هم شهداء الوطنية الأول ؛ وهذه هى أسماؤهم : الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى . وكانوا جميعاً من شباب مدرسى الأزهر .

فهذه هى الثورة الوطنية الأولى التى دلّت على حيوية المصريين ونزعتهم القوية إلى الاستقلال ، واستعدادهم للتضحية بالأرواح والأموال . ولم يستطع الفرنسيون بعد ذلك أن يحكموهم إلا بالقلاع التى بنوها على التلال ، وسموها بأسماء قتلاهم فى هذه المعارك . ولم يجسر أى جندى أن يسير فى شوارع العاصمة إلا مسلحاً . وعرف نابليون أنه أمام شعب لا يُقهر ؛ وقد وطد العزم على مكافحته وإخراجه ؛ ولكن بقى أن تساعده العوامل الدولية والظروف الخارجية . فحين وجدت هذه العوامل تحقق الجلاء ، وغادر آخر جندى فرنسى أرض مصر فى خلال شهر سبتمبر عام ١٨٠١ أى بعد ثلاث سنوات — وما أقصرها — من قدوم « بونابرت » ، وظهر كأن الحملة لم تكن إلا سحابة صيف فى سماء مصر ، ثم تقشعت . ؟

أصول حضارة الإسلام

للمستشرق الأستاذ « ليوبولد فايس[1] »

نقلها إلى العربية الأستاذ محمد محمود غالى

عقـــد اجتماعى جديد

لن يجدينا اليوم نفعاً ترديد ما بين أيدينا من دعاوى عريضة جوفاء نحاول أن نستنهض بها همم المسلمين وإيمانهم لأن موجة هذا الإيمان ما زالت فى انحسار بعد أن أصاب الفكر الإسلامى ما أصابه من أسن وعقم استطالا على يد « حماة الإسلام الرسميين » قرونا طويلة ، إنما السبيل إلى استنهاض المسلمين بعث عقلى جديد يقوم على اكتشاف الإسلام من جديد واستشراف له من مصدريه الأساسيين فى كتاب الله وسنة رسوله ، وفى الأخذ بمناهج الحضارة الإسلامية وما رسمته للمجتمعات البشرية من نظم وتشريعات

تساؤل :

ويحسن بنا قبل أن نمضى فى الحديث أن نجيب عن سؤال طالما ردده كثيرون من نقاد الإسلام من غير المسلمين ، وكثير من المسلمين أنفسهم الذين يرتابون فى إيمانهم إذ يتساءلون عما جاء به الإسلام من منهاج وتشريع ، وعما صاحب الإسلام فى صدره الأول من فتح وانتشار يشهد بهما التاريخ ، وعن هذه الحضارة الإسلامية ومدى ما تستطيع أن تقدمه حقاً لسعادة الإنسانية ورفاهيتها حتى تسعى إليها وتنشدها وتطلبها من أبوابها مهما يكلفها ذلك من تضحيات .

وإذا كانت حضارة الإسلام حضارة فكرية ذات مبادىء ومناهج ، وكانت بذلك نمطاً فريداً فذاً فى تاريخ البشرية كلها فهل فى ذلك ما يبرر إيمان أصحابها وثقتهم بالمستقبل ، وهل فى ذلك ما يؤهل هذه الحضارة للهيمنة على المجتمع البشرى حين يأذن الله ، لأن فى هذه الهيمنة تقدم البشر ورقيهم وحفز الهمم إلى كمال الإبداع وشمول الخير ؟

---

(١) علمنا أن الأستاذ ليوبولد فايس المعروف باسم « محمد أسد » منذ أظهر إسلامه والذى كان يعمل مندوبا للباكستان فى هيئة الأمم ، قد استقال من عمله وعين آخر مكانه : واتصلت بذلك شائعة أليمة نمسك عن ذكر قصتها والتعليق عليها حتى يتبين لنا فيها وجه الحقيقة . التحرير

وليس من الخير فى شىء أن نجيب عن هذا التساؤل بقولنا « إن الإسلام شرعة الله » لأن مثل هذا القول لا يرضى أحداً ممن لا يؤمنون بالقرآن ورسول القرآن ، وليس لهذه الحجة من وزن أو خطر عند من يجحدون ويرتابون . بل إنه لمن الخير لنا وللدنيا جميعاً إن كنا نؤمن إيمانا حقاً أن الإسلام دعوة فذة حتم على المسلمين أن يجهروا بها ويعملوا لها ، ونعتقد أن الإسلام لم يكن صفحة عابرة من صفحات الماضى طوى سجلها ، ولكنه نداء الله للانسانية فى مقبل أيامها . إنه لمن الخير أن نقيم الدليل على أن ما ندين به من عقيدة يستند إلى أساس عقلى سديد ، ولا يرجع إلى تعلق عاطفى فج لا غناء فيه .

***

خرافة العقد الاجتماعى :

ولعلنا قد سمعنا بين نظريات الاجتماع بهذه النظرة التى نادى بها أول ما نادى « هوبز » « ولوك » من فلاسفة الإنجليز ثم زاد عليها وأتمها « روسو » من بعد . ويزعمون فيها أن الجماعات البشرية تقوم فى أصولها على ما دعوه « العقد الاجتماعى » . وافترضوا لذلك أن بنى الإنسان وقد أدركوا منذ فجر حياتهم المتحضرة ألا سبيل لهم إلى شىء من الأمن أو السلام إلا إذا تعاونوا فيما بينهم ، فألزموا أنفسهم لذلك عن طواعية واختيار نظماً لهذا التعاون تحدد علاقاتهم فيما بينهم على وجه أقرب ما يكون إلى تحديد حقوق كل فرد وواجباته محققين بذلك مصالح الفرد لصالح الجماعة كلها .

ورغم طغيان هذه النظرة على مجتمعات الغرب فى منتصف القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر ، فإن البحوث الاجتماعية الحديثة قد هزتها هزاً وحطمتها تحطيماً ، وأثبتت أنها لا تعدو أن تكون إحدى هذه الأساطير الطريفة يتعلل بها الناس بين الحين والحين لتضفى خيوطاً من النور على ما هم فيه من ظلمة وما يشعرون به من مرارة مبعثها إدراكهم ما هم عليه من ضعف وعجز وقصور .

حضارات القوة :

فليس هنالك من دليل واحد — أياً كان هذا الدليل — على أن مجتمعا من المجتمعات أو حضارة من الحضارات قد نشأت عن رضا الناس بها واتفاق حر فيما بينهم عليها لأن الصورة التى نشأت عليها مجتمعات البشر تختلف عن ذلك أشد الاختلاف ، فلم يؤثر عن أى من هذه المجتمعات التى روى لنا التاريخ من أخبارها أن كيانها الاجتماعى المتوارث كان وليد اتفاق حر بين من ضمتهم هذه المجتمعات سواء كان على رأس هذه

المجتمعات ثلة من الأفراد كما كان الحال فى مجتمعات اليونان الأقدمين التى كانت مدنها دولا مستقلة ، أو كانت مجتمعات يحكمها الملوك باسم الآلهة ، كما كان الشأن فى حضارات البابليين والمصريين ، أو كانت مجتمعات إقطاعية كمجتمعات أوربا فى القرون الوسطى . بل لقد كانت هذه الحضارات على النقيض من ذلك نتاجا خالصاً لسياسة القوة وحدها . فكان يقوم فى فترات متباعدة من الزمن أفراد أو جماعات من الناس تنجح فى التسلط على من عداهم من أفراد القبيلة أو المجتمع سواء عن طريق القوة الغشوم وحدها أو التهديد باستخدامها . وقد تكون الفئة فى ذاتها أقلية ولكنها أشد عزما من الاغلبية وأثبت منها جناناً . ويستطيع الفرد المتسلط كما تستطيع الجماعة المتحكمة فى كلتا الحالتين — وبين يديها السلطة المطلقة — أن تشكل على هؤلاء ماشاءت من مختلف النظم الاجتماعية لرعاياها ، وكثيراً ما تم الوصول للحكم والقبض على ناصية السلطان عن طريق غزو خارجى حين تقوم قبيلة لغزو غيرها من القبائل والأقطار . وحينئذ تضطر الأمم المغلوبة على أمرها للخضوع الدائم لمشيئة الحاكمين فينتقص مما كان لأصحاب البلاد من أوضاع اجتماعية ويعلى من مكانة الغزاة ومقامهم تبعا لذلك . ولعل الأمثلة على ذلك غزو الآريين للدرافيين فى الهند ، وما تبع ذلك من خلق طبقة من المنبوذين من أهل البلاد بينما احتفظ الغزاة لأنفسهم بالدرجات العلى فى مجتمع ذى طبقات يشغل أدناها أبناء الشعب المهزوم .

وكيفما كان سبيل أصحاب السلطان إلى تولى الحكم والسيطرة فإن جهودهم تتجه أول ما تتجه إلى تأمين نفوذهم والحفاظ على ما نالوه من سلطان لأنفسهم ولحلفائهم من طبقتهم من بعدهم ، وإلى دفع كل من تحدثه نفسه بمنازعتهم عليه ممن كانوا أقل منهم حظاً وتوفيقاً من أفراد المجتمع نفسه . ولكن هذه القوة المادية لا تستطيع أن تحمى هذه الأوضاع وتحافظ عليها طالما كانت هناك طبقات محكومة تتحين الفرص لتقابل عنف حكامها بعنف مثله أو أشد ، فاستوجب ذلك تدبير وسائل أخرى أقوى وأفعل فى تدعيم الأمر الواقع وحمايته من كل وجه ، حتى يستطيع الحكام بذلك أن يخضعوا عقول رعاياهم لمشيئتهم بعد أن دانت لهم قواهم وأبدانهم من قبل .

حضارات الكهنوت :

ثم شهد التاريخ الوازع الدينى ، أرقى عواطف البشر ومشاعره ، ينصرف عما وجد له ليسخر بعد ذلك لخدمة المصالح الخاصة لأصحاب السياسة ومحترفيها . فوجدت أمثال هذه الأنظمة من كهنوتية وملك متوارث وغيرها من نظم الاسترقاق التى تفاوتت قسوة وغلظة ، وقد علاها طابع التقديس وجللتها هالة الإيمان بالأديان واستحدثت

للناس قصص وأساطير تبرز ألوهية الملوك وتدووات هذه الأساطير فى براعة وحذق أشاعاها وأذاعاها بين الناس ، وساعد على ذلك وجود طبقة الكهنة وعلى رأسها الملك فى غالب الأحوال ، بل لقد بلغ الحال بالمصريين القدماء أن اعتبروا ملوكهم تجسداً للاله ذاته .

وكذلك نرى فى الجمهوريات التى قامت فى المدن اليونانية وفى عصر الامبراطورية الرومانية الأول الطبقة الحاكمة فى مجموعها قد استأثرت لنفسها بكل المناصب الدينية فكان الرهبان وخدام المعابد وسدنتها من بين الحكام أنفسهم وظلت هذه النظم تختلف فيما بينها اختلافا بيناً يستتبعه تباين المستوى العقلى والحقبة الزمنية التى قامت فيها ومزاج الأجناس التى تتألف منها أفراد البيئة التى استحدثت هذه الحضارة . وكانت الطبقات المحكومة فى كل عصر وبيئة تلقن أن النظام القائم بين أفرادها هو وحده النظام الذى اختاره الله أو ارتضته الآلهة فكل محاولة لتعديله ، أو إصلاحه جنـــاية عظمى وإثم كبير .

وكان من الطبيعى ألا يبدى المحكومون رضا صادقا بحالهم أو انصياعا لما يتطلبه منهم أصحاب الحول والسلطان : فكانوا إذ يثورون فى بعض الأحيان حين لايستطيعون على آلامهم صبراً يسامون صنوف العسف والعنف والاضطهاد ، وقد يقدر لهم بعد هذه الهزات والثورات الظفر بقدر يسير من الإصلاحات التى تصبح فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من نظامهم الاجتماعى المتوارث .

وينبغى أن نذكر هنا أن كل هذه الإصلاحات التى كانت تستحدث للتخفيف من حدة الظلم والعسف فى النظام القائم ما كانت لتتم دون عنف أو مناجزة ونضال، وما ذلك إلا لأن الطبقات الحاكمة ما كانت لتقر هذه الإصلاحات إلا على كره منها حين تضطرها الحوادث إلى ذلك اضطرارا لا فكاك منه ولا محيف ، ولم يكن يدفع الحكام إلى هذه الاصلاحات أى معنى من معانى العدل والإنصاف فكان يحدث داخل المجتمع من كبت فثورة فكسب لبعض الحقوق حدثا مألوفا وحقيقة ثابتة تتجدد على الأيام فى طول تاريخ البشر ، ولا نرى فى هذا المقام سوى حضارة الإسلام تستطيع أن تكون استثناء واحداً فذاً لهذا الحكم التاريخى العام

عقد اجتماعى جديد :

جاءت حضارة الإسلام إذن عقلية المنزع والصبغة مستمدة من مجموعة من الأحكام والقوانين تحدد سلوك الأفراد ومعاملاتهم فى المجتمع تحديداً مميزاً واضحاً ، وسميت هذه القوانين بالشريعة ، وكان ذلك حين قام عبد من عباد الله ونبى من أنبيائه ينادى قومه كما أمره ربه :

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون [1] » .

ولقد سلك رسول الله فى تبليغ رسالة ربه نهجا لم تشهد البشرية له من قبل مثيلا فقد عمل على إيجاد أمة من الناس لها صبغتها الدينية والسياسية فما جمع بين أفرادها أو ربط بين قلوبهم إلا إيمان واع واتباع عن طواعية واختيار لمبدأ اعتنقوه وآمنوا بصدق الداعى إليه ، ولم يدّع الرسول الكريم أنه مستحدث هذا المبدأ أو مبتدع هذا الدين وموجده ، وما زاد على أن يكون القائم على إنفاذ ما أنزله الخالق القدير لعباده من نهج وشريعة . فأقبل عليه الذين استجابوا له فرادى أول الأمر ، ثم دخلوا فى دين الله أفواجاً بعد ذلك حتى دانت للدين الجديد جموع من البشر تعز عن الحصر معلنة إسلامها واتباع سبيله فى حياة الرسول وبعد أن اختاره الله لجواره ؛ فجاء قبولهم للاسلام عن تفهم كامل له ، وتدبر لشرائعه ، وظهرت بهذا الحدث العاتى والرغبة الجارفة لأفراد مجتمع واحد أولى الحضارات الفكرية التى شهدها التاريخ : حضارة كانت مبادئها ومثلها العليا وحدها كل أسباب الجمع بين أفرادها وكل مبررات الربط والتأليف بين قلوبهم ، ولم تكن كغيرها من الحضارات سبيلا اندفعت فيه فئة من ذوى المصالح المشتركة حفاظا منهم على سلطانهم وحقوقهم المدعاة .

ولم يكن بين صحابة رسول الله فئة أو طبقة تفردت بامتياز أو سلطان على من عداها من الطبقات أو الفئات ، وما كان لأى لون من ألوان التمايز والتباين بين الصحابة أن يوجد لأن كل امتياز اقتصادى أو اجتماعى ، وكل نفوذ سياسى رهن بقيام نظام اجتماعى ثابت محدود يقوم فيه أصحاب المصالح المكتسبة بالحفاظ على هذه الامتيازات وحمايتها دون تردد أو هوادة . ولما كان ظهور الإسلام برسالته الاجتماعية الإصلاحية ينطوى على البعد عن كل ما سلف فى الماضى من نظم وتقاليد فإن استمرار ما زخر به هذا الماضى من حقوق مكتسبة أو امتيازات متوارثة أصبح أمراً لا مبرر لقيامه ولا مسوغ لوجوده . ولقد أدرك هؤلاء السابقون بالإسلام إدراكاً تاماً واضحاً أنهم مقدمون على استحداث أمر جلل ينشئونه ولا صلة له بما سلف من تراث وتقاليد : نعنى بها ماضيهم القريب . كان هذا هو النهج الذى عرضه عليهم صاحب الهدى فتقبلوه راضية به نفوسهم لأنه ما شرع إلا ابتغاء ما يبشرهم به من خير وما يعدهم به من رضوان .

الفرد والمجتمع :

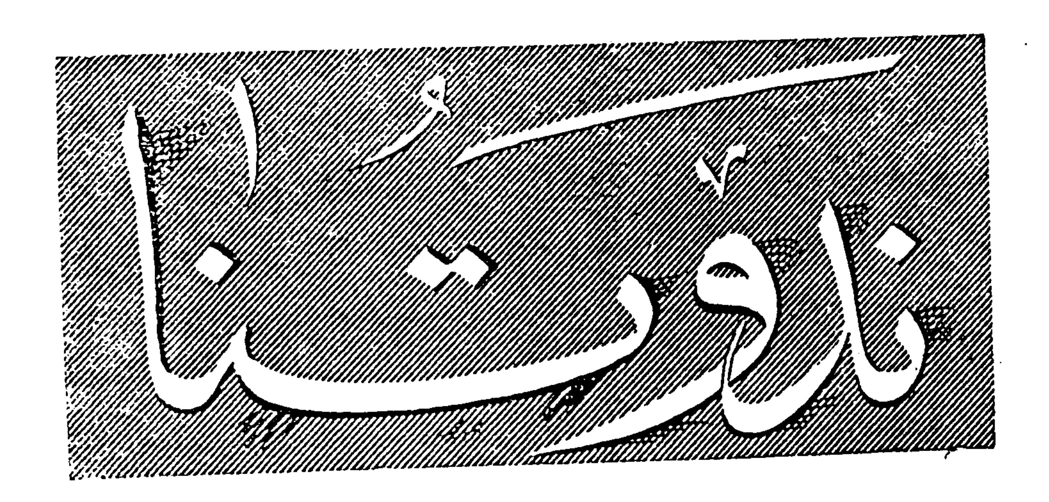
وليس أبعد فى الإغراق فى الخطأ من أن نظن أن ما جاء به الإسلام من تشريع

(١) الأعراف — ١٥٨

كان يهدف أول ما يهدف إلى تنظيم الجانب الاجتماعى من حياة الأفراد أو أنه قد اعتبر الجانب الفردى والروحى من حياته فى المقام الثانى بالنسبة للجانب الاجتماعى ، بل لقد كان الأمر على النقيض من ذلك إذ أن من الأصول الأولى لحضارة الإسلام إنكارها الشديد على الشيوعية — مثلا — ما أتت به من نظم نظرت فيها إلى الفرد أولا على أنه عضو فى جماعة وعلى أنها قد جردت حياة الفرد من كل خطر أو أثر فى ذاتها مستقلة عن كيان المجتمع أو الجماعة . وبهذا كان الفرد فى نظر الإسلام قطب الرحى فى كل أصوله وتشريعاته . وما كان للاسلام أن يضع الفرد فى غير هذا الوضع ما دام الهدف الأسمى لكل دين وشرعة أن يخلق فى الفرد إدراكا عقليا سامقا ونظرة خلقية متسامية يطوعان له القدرة على أن يستبين خير السبل ، ويهديانه صالح العمل. وبغير هذا الاهتمام بالجانب الروحى فى الفرد وتربيته فيه تفقد الأديان حتى كل مبررات قيامها وبقائها ويضحى وهماً كل ما ترسمه للناس من غايات وأهداف ، فلا معنى للتقدم الروحى ما لم يتصل هذا بحياة أفراد البشر ويرتبط بها .

ونستطيع أن نقول كذلك إن الإسلام لا يدعو إلى إرضاء الجانب الروحى وحده من حياة الإنسان مغضياً عن وجوده المادى لأن الإسلام لا يغفل أبداً عما للبشر ككائنات حية من مستلزمات عضوية حيوية لما أودع الله فيهم من ضرورة السعى فى جماعات يستطيعون فى ظلها أن يحققوا مطالب أبدانهم وأمور معاشهم ، ويفتحوا لعقولهم طرائق التفكير وأبوابه ، ويبلغوا من آفاق الفضائل الخلقية آمالهم ومطامحهم. ولا انفكاك لهم فى ذلك عن اعتماد بعضهم على بعض ، وبهذا لا يكون المجتمع الإنسانى فى حقيقته إلا نقلا لهذا التعاون والتكافل إلى ميدان محسوس .

ويتوقف صلاح عبادة المسلم وسعادته الروحية على مدى ما يستمده ممن حوله من أفراد المجتمع من عون وحماية وتشجيع لقاء ما يجده غيره من أبناء المجتمع هم كذلك منه من عون ورعاية . ومن هنا ندرك كيف أن الإسلام لا يستطيع أن يفصل ما بين الدين والسياسة ، أو يفرق بين الدين والاقتصاد . فما كان للاسلام من هدف يرمى إليه أو فكرة يريد بها تحديد مهمة المجتمع أجل وأسمى من تنظيم علاقات الأفراد تنظيما يستطيع فى ظله كل فرد من أفراد المسلمين أن يذلل ما يعرض له من صعاب ومن عقبات ، وأن يجد فى ظل المجتمع المسلم كل عون ورعاية يتسنى له معهما إنماء فرديته والدنو بها إلى أسمى مراتب الكمال الإنسانى . هكذا كانت مهمة المجتمع فى نظر الإسلام كما جلاها الرسول الكريم لأعين البشرية ، منذ بدء بعثته واصطفائه بالرسالة .



« افتتحنا هذا الباب فى العدد العاشر وقلنا فى مقدمته إننا نفتتحه ليكون صلة بيننا وبينك أيها القارىء العزيز ، وندوة تجتمع فيها كلما عنّ لك رأى أو خاطر ؛ فالإسلام دين جماعة ، وأمته — حين تصدق — لا يمكن إلا أن تكون موحدة العاطفة والفكرة . . . وهذه الوحدة لا تخلص إلا إذا تبادل المسلمون النصح وأخلصوه لله . وهذه مهمة الباب الجديد والله المستعان » .

التحرير

. . . . وفى رسالة كريمة يقول الأستاذ المجاهد الفاضل « الفضيل الورتلانى » :

(يسعدنى أن أهنىء أسرة «المسلمون» بالتوفيق الذى منّ الله به عليها فى عامها الأول المبارك ، فإن هذه المجلة المشرقة الفريدة إلى جانب مستواها العالى من حيث قوة الموضوع وأسلوب التحرير ، فإنها استطاعت لأول مرة أن تجمع للمسلمين فى مدرسة واحدة صفوة الأساتذة والقادة فى العالم الإسلامى كله ، وقد كان اجتماع هؤلاء أمل المشتغلين بالحركة الإسلامية فى كل مكان فجاءت « المسلمون » لتحقق الشطر الأكبر من هذا الأمل ، ولتكون بذلك أساساً راسيا للوعى الإسلامى النامى ولوحدة المسلمين المنشودة .

لقد طفت خلال السنة الماضية بكثير من أقطار الاسلام فى المشرق والمغرب فأسعدنى أن رأيت « المسلمون » موضع حديث الناس وإعجابهم ، وهم يعتبرونها فتحاً جديداً فى أفق الحركة الإسلامية .

ولا يزال أملنا فى « المسلمون » أكبر بارك الله فيها وأيد صاحبها بروح منه)

* * *

اللهم آمين ؛ وشكر الله للأستاذ الكبير جميل عطفه وتشجيعه ، وجعلنا عند حسن ظنه وظن أهل الخير .

* * *

وفى رسالة من طنجه يقول الأخ الفاضل العزيز الأستاذ الشيخ عبد الله بن كنون : (. . وأقول بكل صراحة إن مستوى « المسلمون » فوق المستوى الذى كنت أتوقع بكثير ، إذ كنت أظنها ستكون مجلة الجمهور المسلم تُفقهه فى الدين وتبصره بحقائق الإيمان فإذا بها مجلة راقية ترتفع عن مستوى الجماهير ، ولكنها تسبى نفوس النخبة من رجال الدين ورجال الإصلاح . وعلى كل حال فقد سدت فراغا أعجز كثيرين سده ؛ وإن كان يعوزها شىء فهو باب واسع لأخبار العالم الإسلامى ، وآخر للتعريف بالكتب الصادرة فى مواضيع إسلامية) .

* * *

ونحن نشكر للأخ المفضال تحيته الكريمة وتوجيهه ، وسنعمل على توسيع باب الأخبار ، وفتح باب الكتب إن شاء الله ؛ وإن كنا ننتهز هذه الفرصة لنذكر أن الاتجاه فى باب الأخبار وفى أفق العالم الإسلامى هو « توجيهى » لا « إخبارى » لا لأن المجال لا يتسع لذلك فحسب ، ولكن لأننا — ونحن بصدد صناعة تيار سياسى دائم يقوم على الوعى الإسلامى الناضج — نؤثر ألا ننشغل بالتيارات الأخرى المؤقتة إلا بالقدر الذى يعنينا .

أما كون المجلة فوق مستوى الجماهير فنحن نعلم ذلك ونعتذر عنه ، وعذرنا أننا أردنا بالمجلة خدمة الحركة الإسلامية على اختلاف أسمائها عن طريق تغذية المشتغلين بها والعاطفين عليها بحقائق الإسلام ، وأن يكون مستواها فى ذلك المستوى الذى يكفل للحركة نضجا وتربية تواجه بهما مذاهب العصر وتياراته وفتنته القاسية ، وربنا سبحانه يقول : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » ولا بأس مع ذلك أن يكون من مهمة المجلة — وهو ما ذكرناه فى مقدمتها الأولى — أن تطرق أبواب المشتغلين بالعلم فى مختلف فروعه وتخاطبهم بالأسلوب الذى يفهمونه ، وتهتك بذلك الحجاب القائم بينهم وبين جمال الإسلام وحقائقه .

هذه المهمة وتلك وما يتصل بهما عبء صعب وأمانة قاسية وطريق طويل ، نسأل الله أن يعيننا عليه ، وأن يجنبنا فيه الزلل .

* * *

وفى رسالتين من الصديق الفاضل الأستاذ طه عبد الباقى سرور الأديب المصرى المعروف ، والسيد عمر عبد الرزاق الدايل من لبنان رجاء حار بأن تباع المجلة فى السوق وألا تكون خاصة بالمشتركين . ومن كلمات الأستاذ طه :

(. . . فاسمح لى اليوم أن أثور عليك باسم الكثير من القلوب المؤمنة ، وباسم الكثير من العقول المفكرة . . . أثور ضد تلك القيود التى تقيمها حول الخير الذى هو « المسلمون » وأعنى بتلك القيود أن لا تكون المجلة إلا للمشترك والمشترك وحده ، و« المسلمون » للمسلمين ؛ فيسّر يا أخى على المسلمين يسّر الله لك ونفع بك وأعانك على جهادك ، فإن رايتك التى بيمينك « المسلمون » تواجه اليوم معركة وتلقى عدواً ما أظن أن غيرها لقى مثل ما تلقى ، وعانى مثل ما عانى وحسبك الله) .

***

وقد تكرر هذا الرجاء كثيراً من أصدقاء كثيرين ، ونحن نشكر للصديقين الكريمين عاطفتهما واهتمامهما ، وجوابنا عليهما ما أجبنا به على رسالة الأستاذ عبد الله بن كنون ، نزيد على ذلك أن عدد هؤلاء الذين يمكنهم الاستفادة من المجلة والمهتمين بها لن يزيد إلا قليلا ببيع المجلة فى السوق فقد أعلنا عن المجلة الإعلان الكافى . بقى العذر المادى عند البعض ، وهو الذى يؤلمنا أشد الألم ، ولكن لدينا عذراً ماديا أقسى منه وهو مشاكل التوزيع التى يتولاها العدو الذى أشار إليه الأستاذ طه ، وموقف شركات التوزيع من الصحافة الإسلامية أليم مرير ، فصبر جميل والله المستعان .

وقد عالجنا تخفيف عبء الاشتراك عن الطلاب تقديراً للعذر المادى ، وفعلنا غير ذلك تلبية لبعض الظروف فى حدود الطاقة .

ثم إننا بطريقة الاشتراك نستطيع دائماً أن نعرف أسرة « المسلمون » فى كل مكان . وهذه ميزة طيبة تعيننا فى توجيه التحرير ، وفى تنمية روح الجماعة التى أصبحنا أحوج ما نكون إليها بعد تشتت طويل . . . .

ويطلب السيد عمر الدايل أن نفتح باباً لأسئلة القراء وللاستفتاء ، وسنفعل إن شاء الله ، ويرى ألا نطرق موضوعات خلافية تبعثر الجهد وتضيع الوقت ، وهى لفتة حكيمة جميلة ؛ فإن الذى لدينا من الحقائق المجمع عليها المهملة كثير ... فلنبدأ به ولنجتمع عليه ، واجتماع القلوب والعقول كفيل أن يحصر الخلاف فى أضيق زواياه ، وهو حينئذ خلاف فى زوايا بناء قائم لا تزعزعه الأهواء . . .

***

لم تصب امرأة ولم يخطىء عمر ! . .

وفي رسالة من مكة المكرمة تحت هذا العنوان يقول الأستاذ أحمد محمد جمال :

(شرفت بمعرفة فضيلة الأستاذ مصطفى السباعى، كاتب « السنة » فى « المسلمون » الغراء، عندما زرت دمشق فى صيف عام ١٣٧٠ ، ثم رأيته فى موسم الحج من العام نفسه فى الحفلة التى أقامها الأستاذ سعيد رمضان فى فندق بنك مصر . وكان إعجابى به ولا يزال قوياً .

وقد أوشجت « المسلمون » بيننا وبين كتابها الفضلاء الأجلاء صلة الأخوة الإسلامية ،وربطت بين عقولنا بِرُبُط الثقافة المشتركة ، والتناصح المتبادل .. فجزى الله عنا أخانا « سعيداً » خيراً ، وزاد « مجلته » هذا الرباط المقدس بيننا قوة وزكاء .

ولعل من دلائل المودة الإسلامية الصادقة ، وعوامل تنميتها وتزكيتها : أن يجادل بعضنا بعضاً بالحسنى فيما تنشره « المسلمون » من آراء لنا وبحوث . .

جاء فى سلسلة بحوث الأستاذ السباعى عن « السنة » بالعدد الأخير من «المسلمون» أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى الناس عن التغالى فى مهور النساء ، فقامت إليه امرأة تخطئه ؛ وتستشهد بالآية الكريمة : « وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فقال عمر: « امرأة أصابت ورجل أخطأ » .

والذى أعرفه أن قصة عمر والمرأة غير ماروى الأستاذ السباعى ، وغير ما يرويه الرواة . وكان أولى أن يحتجوا على القصة لا أن يحتجوا بها ، لو وزنوا قول عمر وقول المرأة بميزان صحيح .

فالآية : « وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » لاتلاقى — بتعبير القضائيين — نهى عمر عن التغالى بالمهور وحده ، ولكنها تلاقى شيئاً آخر أسقطه الرواة ، وهو قول عمر: « .. وكل امرأة زاد مهرها على مهر ابنة محمد عليه السلام فهو فى بيت المال » .

ثم إن هذه الآية نزلت فى النهى عن تضييق الأزواج على زوجاتهم ليضطروهن على افتداء أنفسهن بشىء من مالهن للمخالعة والفراق ، ويزيد ذلك وضوحاً صدر الآية « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن الخ » .

وإذاً بإقرار سيدنا عمر رضى الله عنه بخطأه وصواب المرأة إنما كان منصباً على هذا الجانب من خطبته . . جانب وضع الزائد من مهور النساء على مهر الزهراء فى بيت

المال ، ذلك أن الزوجة — بعد تراضى الزوجين على الصداق بالغاً ما بلغ — أولى به من بيت المال ، بلا جدال .

أما التغالى بالمهور عموماً ، وقبل التراضى بين المتزاوجين ، فالنهى عنه دعاية واجبة أصاب فيها سيدنا عمر ، ونصيب فيها نحن من بعده . لأنه — أى التغالى — سبب كساد البنات وفسادهن بلا مراء .

وبعد فشكراً لصاحب هذه المجلة ، على هذه الفرصة التى أتاحها لتلاقى أرواح وأفكار مسلمة ، متحابة فى الله ، متناصرة فى دينه ، على تباعدها بين مكة والقاهرة ودمشق .

***

وشكر الله اهتمامك يا أخى أحمد .

***

خاطرة

وفى رسالة من الأخ الكبير العزيز الأستاذ عمر التلمسانى تحت هذا العنوان يقول :

(فى العدد الخامس للسنة الأولى من « المسلمون » قرأت خاطرة بعنوان « شكوى » استغرقت معها فى تأمل طويل عميق ، وطويت المجلة وأمسكت بالقلم وكتبت هذه الخاطرة . وأخذت العوائق يوما بعد يوم تحول بينى وبين إرسالها إليكم ، حتى كان ما كان ، فإذا بى أراها قديمة جديدة ، أو جديدة قديمة لست أدرى أيهما أصح . فإن رأى قلم التحرير أنها جديرة بالنشر فله إدراجها فى أحد أعداد المجلة ، وإن رأى أنها غير خليقة بالنشر فالرأى ما يرى .

« يا صاحب الشكوى »

« فى قلوبنا قبس من الإيمان ، لا تزيده عصف الحوادث إلا تأصلا ورسوخا ؟ . . . الضوء واهن حقاً . . . ولكن يسار على هداه فى حلوكة الغسق القاتم . . . »

ومتى عاش الهداة والمصلحون فى غير مثل هذه الأجواء ؟ ولمن تبعث الرسل إذا صلح حال العامة وأمن الناس أجمعون ! ؟ الآراء سقيمة . . . والمشاعر سقيمة . . . والأوضاع سقيمة ؛ ولكن . . . أليس هذا هو ميدانك ؟ وتلك هى مهمتك ؟ وهل نبت الدعاة إلا فى مستنقع الضلالة ؟ وهل قام المصلحون إلا فى مباءة الغباء الفكرى ، ولوثة العقول التائهة فى بيداء العتو وسطوة الشيطان ؟ . . . أجل . . . إنا بالغوا ما نريد ، وسنجد ما وعدنا ربنا حقاً ، وسنقيم الحق ولو فى أودية الأبالسة . . . بل ولقد أقمناه فعلا فى محيطنا المحدود . . . وإنا لمقيموه فى الغد القريب أو البعيد مسموق

الذرى فوق أركان هذا الكون الفسيح . أليس عهدنا أن ننصر الله . . . وفي ذلكم بشارتنا بنصر الله لنا وتثبيت الأقدام منا ؟ !

المعركة رهيبة . . ما في ذلك من شك . . . والنضال عنيف مرير . . . مافى ذلك من ريب ، بيد أننا في هذا العنف نستروح صفاء الأرواح ، وفي تلكم المرارة نتذوق حلاوة الكفاح ... اعنفى أيتها المعركة الرهيبة فإنا جند الله الغالبون ، واشتدى هوج الرياح ، واحلو لكى ظلمات العسف والطغيان فإنا القبس الذى سيجد الضالون عليه الهدى وبدفئه يصطلون .

أنت وحدك القادر يارب الصغير والكبير . . أنت القادر وحدك على كشف الغمة . . فاجعلنا أهل دعوتك ، وحملة رسالتك ، وهداة أمتك . . وحسبنا هذا منك منّا ، وحسبنا هذا منك رضاء ، ثم حسبنا ذلك عندك مثوبة وجزاء .

ليس اعتدادا ... ولكنك مانح القوة والحياة ، فهى بك ومنك ، ولك وإليك.... لك العتبى حتى ترضى ؟

* * *

جزى الله الأخ الكبير كل خير عن قلبه الكبير ، ولعل القارىء العزيز يحس أن الخاطرتين من نبع واحد ويدوران في فلك واحد .

نبي الهدى

نبي تلاقت في جَوانِحِه العُلا وَمَجْدُ الحياة الضخْمُ واليومُ والغدُ
ولُخِّصَ فيه الكَوْنُ حتى لأنَّه حَيَاةٌ وخُلْدٌ وامْتِدَادٌ ومَوْعِدُ

« أحمد نار »

العوامل والمؤثرات التاريخية وراء نظام الرأسمالية

للأستاذ السيد أبي الأعلى المودودي

تعريب السيد محمد عاصم الحداد

(٢)

الانقلاب الصناعي :

وفي القرن الثامن عشر زاد اختراعُ الآلة زيادة عظيمة في سير ذلك الانقلاب الذي كان قد ابتدأ في دور النشأة الثانية . ولما استُعملت المعلومات والاختراعات العلمية الجديدة في ترقية الصناعة والتجارة والزراعة ووسائل التنقل ، بدأت سلسلة إنتاج المنتجات وإعداد المواد الخام ، واستهلاك البضائع المصنوعة في كل قطر من أقطار العالم على نطاق واسع ، لم يكن خطر على بال من قبل .

وإن فرص الرقي والرفاهية والقوة والنفوذ والسلطة التي فتح أبوابها هذا الانقلاب العظيم ، فإن أقرب طائفة قامت وتقدمت للاستفادة منها هي طبقة بورژوا وحدها ، التي كانت قد نهضت وارتفع شأنها في دور النشأة الثانية . وذلك لما كان بيدها من الصناعة والتجارة والثروة والسيطرة على العلم والأدب . فاستخدمت الثروة والمهارة الفنية والكفاءة الإدارية ، وأقامت بها نظاماً للصناعة والتجارة جديداً اشتهر في ما بعد بنظام الرأسمالية الجديد ، وقد أقيمت تحت هذا النظام الجديد معامل ومصانع ودوائر تجارية كبيرة في المدن ، وانفضت الحلقات القديمة لأهل الحرف من الطوائف المختلفة ، وضاقت سبل العيش على وجوه أصحاب المصانع الصغيرة والصناع المنفردين والتجار من ذوي الثروة القليلة ، واضطر أهل الحرف من سكان القرى أن يؤموا المدن ويتمثلوا عمالا أجراء بين أيدي أصحاب المصانع الكبيرة هؤلاء . وكذلك لم يجد التجار من أصحاب الأموال الضئيلة بداً من أن يكونوا مستخدمين أو وكلاء لهؤلاء الصناع والتجار ، فهكذا تخطفت طبقة بورژوا واستأثرت بكل ما جاءت به الاختراعات العلمية الحديثة من القوة وأخذت في توسيع نطاق نفوذها وسيطرتها .

وإن أكبر ما حال دون امتداد هذه السيطرة ونفوذ تأثيرها ، هو تلك الولايات القومية التي كانت قد تولدت نتيجة لحركة النشأة الثانية . كان ملوك هذه الولايات المستقلون

يزعمون ويدّعون أنهم يتمتعون بسلطة موهوبة لهم من الله ، وكان أمراء النظام الإقطاعى الفارط وأغنياؤه قد أصبحوا أنصاراً لهؤلاء الملوك وأساطين قام عليها صرح سيطرتهم ونفوذهم ، وأصبحت لهم الكنائس القومية سنداً دينياً وروحانياً . وجملة القول أن السلطة كلها كانت بيد هذا « الثالوث » ، وهو كان يلقى فى سبيل طبقة بورژوا أنواعاً من العقبات ؛ بل لم تكن عقباته تحول دون طبقة بورژوا فى ميدان الصناعة والتجارة فحسب ، بل كان هناك فى العمران والمدنية أيضاً كثير من مخلفات نظام الإقطاعية لا تحبها هذه الطبقة الناشئة وتشمئز منها اشمئزازاً شديداً .

مذهب الحرية والتجدد الحديث :

ثم إن مذهب الحرية والتجدد الذى كان قد انتصر فى الحرب الماضية ، نهض مرة أخرى فى هذا الدور متدججاً بالأسلحة الجديدة وأخذ ينفخ روح الجمهورية فى السياسة وروح الحرية الفردية فى المدنية والاجتماع والأدب والأخلاق ، وروح التحرر وعدم التقيد بشىء (Laissez fajre) فى الاقتصاد . ولقد كان قولهم الذى يقولونه فى هذا الشأن أنه لا يحق للكنيسة ولا للدولة ولا للمجتمع أن يقوم فى وجه سعى الفرد للارتقاء والانتفاع ، وأنه ينبغى أن تكون الحرية التامة متيسرة لكل فرد من الأفراد حتى يتمكن من استعمال قواه ومواهبه وكفاءاته حسب ميوله ، ويتقدم إلى الأمام حسب ما يستطيع ويقدر . بل لا يمكن أن تسدى إلى صالح المجتمع نفسه خدمة حقيقية إلا بأن يتمتع كل فرد من أفراده بحرية غير محدودة فى كل شعبة من شعب الحياة ، وفى كل طريق من طرق العمل ، ومن كل قيد من القيود الرسمية والدينية والخلقية والقانونية والاجتماعية

فهكذا استنفد زعماء هذه النظرية ورافعوا لوائها جهودهم فى رفع كلمة التسامح والتحرر والإباحية والفردية و — إذا قلنا بكلمة موجزة — « المعقولية » (Rationalism) حسب ما اصطلحوا عليه .

ولقد كانت طلبتهم فى السياسة أن تكون سلطة الحكومة ضيقة إلى أقصى حد ممكن وأن يكون الفرد متمتعاً بأوسع ما يمكن من الحرية ، فلا تكون الحكومة إلا وكالة تعنى بإقامة العدل بين الأفراد وتمنعهم أن يتدخل بعضهم فى حدود بعض وتحافظ على الحرية الفردية . أما الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فينبغى أن تدور رحاها وتسير شئونها كلها وفقاً لجهود الأفراد وأعمالهم وأفكارهم وآرائهم الفردية ، فلا حاجة للحكومة إلى التدخل فى شئون الأفراد هذه لا بحيث أنها عاملة ولا باعتبار أنها زعيمة . وفى الحين نفسه كانوا يريدون أن لا تبقى سلطة الحكم ملكا لعائلة ملكية ولا أن يستغلها بعض بيوتات من ملاك الأراضى . إن البلاد ملك لعامة الأهالى ، ولا تسير شئون

الحكومة إلا بما يؤدون إليها من الضرائب ؛ فينبغى أن لا تقوم الحكومات ولا تنفض ولا تتبدل إلا بآرائهم وأن يكون لهم تأثير بالغ وكلمة مسموعة وقول فصل فى التشريع والإدارة . فهذه النظريات هى التى أصبحت أساساً لما بدأ يقوم فى الدنيا منذ أواخر القرن الثامن عشر المسيحى من الجمهوريات الجديدة .

أما المبدأ الذى دعوا إليه واهتموا به اهتماما بالغا ، فهو أنه إن تركت قوانين الاقتصاد الفطرية تعمل بنفسها على سجيتها بحيث لايتدخل فيها ولايخل بشأنها عوامل خارجية ، فالمرجو أن يتأتى أكبر خدمة ممكنة للفلاح الجماعى بمساعى الأفراد الفردية من غير محرك ولا دافع ، فيزداد الإنتاج ازدياداً ، ويظل يتوزع بين الأفراد بأحسن طريق ممكن ، بشرط أن يكون الناس كلهم متمتعين بالحرية التامة فى سعيهم وعملهم ولا تتدخل الحكومة فى هذا العمل الفطرى بطريق متصنع . فمبدأ الاقتصاد الحر laissez -- faire هذا هو الذى تقرر واعتبر نظرية أساسية لنظام الرأسمالية الجديد .

ومما لاريب فيه أن مذهب الحرية والتسامح هذا الناجم قرنه فى دور الانقلاب الصناعى كانت فيه عناصر للحقيقة والصدق ، كما كانت فى مذهب الحرية الناشىء فى دور النشأة الثانية ، وهى التى سببت له النجاح أخيراً ، ولكننا نشاهدها مقترنة بالأثرة والتطرف : أى نفس الضعفين اللذين مازلنا نشاهدهما عاملين منذ دور البابوية والإقطاعية

فأما الأثرة فكان من مظاهرها ان كانت مطالبة أكثرهم بالحق والإنصاف خالية من الإخلاص ، وأنهم ماعرضوا ماعرضوا من المبادىء الصحيحة حبا للحق ، وإنما عرضوها لأنها كانت مفيدة لأغراضهم ومساعدة لها . والشاهد على ذلك أنهم ما كانوا ليرضوا أن يعطوا العمال والجمهور المعوزين نفس ما كانوا يطالبون به لأنفسهم من الحقوق .

وأما التطرف فكان ظاهرا متجلياً فى كل ما يصدر من قول أو عمل من أصحاب الرأى وأرباب اليراع المخلصين منهم فقد تناولوا طائفة من الحقائق واجتازوا بها من حدودها الأصلية اجتيازاً بعيداً ، وأهملوا حقائق أخرى ونحوها عما كان لها من المقام فى الحياة الإنسانية وأحلوا محلها الحقائق المرضية عند أنفسهم ، مع أن كل حقيقة إذا جاوزت حدها انقلبت باطلا وزوراً وجاءت بنتائج معكوسة ، كما لايخفى . فهذا الإفراط والتفريط يوجدان فى كل ناحية من نواحى نظام الحياة الذى ترتب تحت نظريات « التحرر » و « الفردية » و « الجمهورية هذه » ، ولكنه إذ كان موضوع كلامنا الآن « الناحية الاقتصادية » خاصة فلنضرب الآن صفحا عن النواحى الأخرى ونبين ، مستعرضين هذه الناحية الاقتصادية وحدها ، ما كان ذلك النظام الاقتصادى غير المتزن الذى أقامه هؤلاء القوم بمزجهم عناصر الأثرة والتطرف بقوانين الاقتصاد الفطرية ، ثم ما نتج عن هذا النظام الاقتصادى من نتائج وخيمة .

لماذا حاربت القوميات الدين فى أوربا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

« يعكف فضيلة الأستاذ مصطفى السباعى الآن على بحث مشكلة من أهم مشكلات المجتمع العربى فى العصر الحديث ، وهى تعدد الأديان فى الشرق العربى وموقف غيرالمسلمين من الإسلام ، وموقف القوميين منه أيضاً . ويعتزم إخراج هذا البحث فى كتاب ، وقد آثر فضيلته أسرة « المسلمون » بهذا الفصل من بحثه . وفيما يلى بعض أبحاث هذا الكتاب القيم الذى سيكون له من رصانته ومن حاجة المسلمين إليه أثر قوى فى العالم الإسلامى » .

التحرير

انتهى الصراع العنيف الذى كان قائماً فى أوروبا منذ عصر النهضة حتى نهاية القرن الثامن عشر بين الكنيسة ورجال النهضة بانهزام الأولى وانتصار الثانية ، وهذا أمر لم يكن منه بد بعد أن طغت الكنيسة فى العصر الوسيط على كل شىء ، وتحكمت فى شئون الدول والملوك والشعوب ، وكممت الأفواه ، وحجرت على العقول والأفكار ، وأذاقت الناس — على عهد محاكم التفتيش — شر ما منيت به الإنسانية من ظلم وعسف واضطهاد وتنكيل وحشى ، كل ذلك فعلته الكنيسة الغربية باسم الدين ، وفعله رجالها باسم السيد المسيح ، وبررته ضمائرهم بالدفاع عن الإيمان والإنجيل . . . أفلا ترى معى أن موقف القوميات التى انتعشت بعد ذلك الصراع المرير من إقصاء الدين عن الحياة العامة وعدم اعتباره من العناصر الرئيسية فى حياة الأقوام والشعوب أمر ضرورى لامفر منه فى تلك الأحوال والظروف ؟ .

ومما زاد فى نفرة الناس من الدين يومئذ أنه لم يكن يروى ظمأ الشعوب فى إقامة مجتمع حر كريم سعيد تتوفر له جميع وسائل الرفاهية والتطور .. والناس دائماً تلجأ إلى أديانها عند الشدائد ؛ فإذا لم تجد عندها طلبتها أعرضت عنها جانباً ، وسلكت كل سبيل يؤدى بها إلى ما تريد . . وليس أدل على ذلك من أن شعوب أوروبا فى مطلع عهد النهضة كانت تتطلع إلى نظام ينقذها من تحكم الملوك والأمراء والأشراف ورجال الكهنوت ، ويزيح عن جماهيرها كابوس البؤس والحرمان والشقاء ، وينقلها إلى نصيب من العدالة الاجتماعية تشعر معه هذه الجماهير بكرامة الإنسان وشرف الحياة ، فلم تكن تجد هذا فى ظل الدين الذى كان يمثله يومئذ رجال الكنيسة ، مما دعاها إلى أن تشيح بوجهها عنه ، وتلتمس النجاة منه بشكله الجامد الجاف كما كان يصوره رجال الكنيسة بأعمالهم ومواقفهم . وهل كانت روسيا ترتمى فى أحضان الشيوعية الماركسية لو أنها وجدت الدين الذى ينقذها من ظلم القياصرة وتألههم واستعبادهم للجماهير وازدرائهم

بكرامتها ، بل إنها وجدت على عكس ذلك ديناً يشد رجاله عجلاته بمركبة القياصرة ، ويبسط ظل حمايته على أولئك الذين امتصوا دماء الشعب ، وكانوا يبيعونه مع أرضه التي يعيش عليها كما تباع الحيوانات والسلع ؟ ! .

وثمة سبب آخر لازورار القوميات عن الدين ! . ذلك أنها وقد رأت فيه مثبطا لعجلة الحضارة وتقدمها ، أخذت تفكر في المسافة التي تفصل مابين نفسيتها الأصلية وبين هذا الدين الغريب ! ... فالمسيحية ليست ديانة غربية ، وإنما هي ديانة شرقية نبتت على شواطىء البحر الأبيض من مدن فلسطين ، ومن هناك امتدت إلى روما فإلى أمم الغرب . ولقد ظلت المسيحية الشرقية كما جاء بها يسوع الناصرى بعيدة بعداً شاسعاً عن طبائع الغربيين ونفسياتهم ، فكيف وقد جمدها رجال الدين بشكل أصبحت تنفر منه طباعهم في مستهل نهضتهم وانبعاثهم . وخذ لك مثلا « الألمان » فلقد كانت ديانتهم في عهد الوثنية « ديانة رجولة يلعب المعبد بها والكاهن والقرابين دوراً تافهاً ، وكانت آلهتها شبيهة بالرجال أو بضرب من القوّامين بالمدارس (عمداء المدارس ورؤساء طلابها) فهم مخلوقات أشد قوة من الناس يتدخلون في الشئون الإنسانية حسبما تمليه عليهم دوافعهم لاوفق قاعدة سارية[1] » فهؤلاء الذين كانوا في ديانة يلعب فيها المعبد والكاهن والقرابين دوراً تافهاً ظلوا بعد تنصرهم غرباء عن ديانة يلعب فيها المعبد والكاهن والقرابين دوراً رئيسياً .

ثم ما كاد يتاح لهم فرصة التخلص من سيطرة الكاهن والقرابين في عهد الإصلاح اللوثرى حتى كانت اللوثرية تنتشر فيهم انتشار النار في الهشيم . لقد وجدوا في اللوثرية — على قصورها في الإصلاح — الكوة التي تنفذ منها أرواحهم إلى عالم الانطلاق والتحرر . . . ثم ما كاد يتاح لهم فرصة التخلص من فلسفة التسامح الذى عبر عنه المسيح بقوله : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر » حتى وجدوا في « نيتشه » بطل الروح الألمانية التي تقوم على تمجيد القوة والبطولة ، وفي « هتلر » بطل القومية الألمانية التي تقوم على الصراع والكفاح ، ومن ثم لم يكن « هتلر » يطيق روح المسيحية المسالمة المتسامحة ، بل كان يرى فيها عامل إذلال وضعف لقوميته المحاربة المكافحة ، فليس غريباً أن يعلن عداءه لها ، وأن ينأى بقومه بعيداً عن مغانيها ومعالمها ! . . .

ولا ننسى أن نضيف إلى ذلك كله ما جره النزاع الدينى على أوربا من الخراب والدمار والفناء في القرنين السادس عشر والسابع عشر وما جرته الحروب الصليبية من

(١) ويلز في كتابه معالم تاريخ الإنسانية ترجمة عبد العزيز جاويد : ٣ / ٦٧٨

قبل ضد المسلمين ثم الحروب الصليبية التى كان يعلنها البابا ضد المراطقة فى بوهيميا وما جاورها . . وضد الألبيين ومن نحا نحوهم . . فهذا كله حال دون جعل الدين رابطة مشتركة بين شعوب أوروبا فى عصر النهضة ، وأضفى عليه فى نظر رجالها رداءا مرعبا تلوح من خلاله شبح الضحايا وأنهار الدماء . . حتى غدوا يعتقدون أن من طبيعة الدين القسوة على المخالفين ، والحرب على العقلاء المتحررين ، وخراب الدنيات الزاهرة على يد رجال الدين المتحمسين . . وما كانت هذه فى الحق طبيعته المسيحية السمحة كما جاء بها يسوع الناصرى عليه السلام ، ولكنها ثمار تلك الكهنوتية الدنيوية المتسلطة المتعصبة التى تمثلت فى رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ولازمتهم حتى العصر الحديث . .

وما ينبغى لنا أن ننتظر من منطق الثورة أن يقيم قسطاس العدالة فى حكمه على طبيعة الأشياء ، وأن يفرق بين عمل رجال الدين وطبيعة الدين نفسه ؛ ذلك لأن منطق الثورة — دائماً — منطق متطرف منتقم ، لا يهمه أن يعدل بقدر ما يهمه أن يهدم ، والثورة التى بدأت على رجال الدين يومئذ لم يتح لها من ينصفها من رجال الدين أنفسهم إلا بعد أن لجت الثورة فى تمردها حتى وصلت إلى الدين نفسه ! . . وهيهات أن يكبح جماحها وهى تحمل معول التهديم إلا بعد أن يلقى خصومها السلاح وتشعر بهزيمتهم هزيمة الأبد . . عندئذ يرجى منها أن تنصف بعد أن أتيح لها أن تنصف

وهكذا كان . . . فبعد أن كان القرن السابع عشر والثامن عشر عصر شك وإلحاد وتطرف فى الأفكار ، غدا القرن التاسع عشر قرن هدوء وتفكير فى المسالمة . . وما وافى القرن العشرون حتى كانت النفوس مستعدة بل ظامئة إلى العودة للدين — لا دين محاكم التفتيش والحروب الصليبية ومكافحة الطب ودوران الأرض والتلسكوب — بل دين الحب والرحمة .. دين الروح العالية المشرقة . . دين الضمير المتيقظ المخفف من شهوات النفس وكبرياء المادة وطغيان القوة . . دين الحضارة الإنسانية المتقدمة فى ظل الله العادل الكريم .

موقف القوميين فى بلادنا :

لا أعتقد أنى جانبت الحق فى تصوير النزاع بين الدين والقوميات فى أوروبا ، وأعتقد أن النتيجة التى عرضتها عليك كافية لأن تقنعك أنه ليس من طبيعة القومية فى حد ذاتها أن تتنكر للدين . بل هو دعامة من دعائمها الكبرى إن أرادت لنفسها الحياة والبقاء . . . فإذا اضطرت لمعاداته كما فعلت القوميات

الأوروبية كان ذلك أمراً عارضاً خارجا عن طبيعة القوميات وتكوينها ، وعن طبيعة الدين الصحيح وفلسفته .

وكان من المنتظر أن يقف من الدين دعاة القومية فى البلاد العربية غير الموقف الذى وقفه منه بناة القوميات فى أوروبا ، نظراً لاختلاف الظروف والأوضاع وطبيعة الدين فى البلاد العربية — وخاصة الإسلام — وطبيعة المسيحية التى كانت تصورها الكنيسة الغربية فى القرون الوسطى . . زد إلى ذلك أن القومية قد بدأت عندنا فى العهد الذى انتهى فيه أو كاد ينتهى ذلك الصراع الحاد العنيف فى أوروبا بين الدين والنهضة ، وقد بدأ العلماء والفلاسفة هناك يعلنون أن لا تعارض بين العلم والدين ، وأخذ علماء النفس وعلماء الأخلاق يجهرون بوجوب الرجوع إلى الدين ليمسك على الإنسانية بناء الأخلاق الكريمة التى أوشكت أن تطمس معالمها فى هذا الطوفان الهائل من الحروب والمشاكل العالمية . . ولكننا ما زلنا نرى جمهرة الدعاة إلى القومية فى بلادنا يقفون من الدين ذات الموقف الذى وقفه علماء النهضة فى عصر القوميات من الدين وتعاليمه . .

وقبل أن أبسط حججهم فى هذا الشأن وأناقشها نقاشاً علمياً هادئاً أرى من واجبى أن أنبه القارىء إلى أن دعاة القومية فى بلادنا يتأثرون إلى حد كبير بروح الثورة التى قامت فى القرن الثانى عشر وفلسفتها وأعلامها ، وأن الذين تولوا الترجمة والتعليم عندنا فى العصر الحديث كان أكثرهم من رواد المدرسة اللاتينية ، فكانوا لا ينقلون إلينا إلا بقية التيار العارم الذى توج بثورة فرنسا عام ١٧٨٩ ، ثم ما تزال بقية من العقول تنضح من ثمالته حتى الآن . . أما التيار الجديد الذى بدأ فى أواخر القرن التاسع عشر وأخذ يقوى فى هذا القرن ، وهو الذى يعترف بما للدين من أثر فى الحياة ، ويعلن أنه لا تناقض بين الدين وبين الاتجاه الجديد للعلم والفلسفة ، فهذا ظل مطموس الأثر لا ينقل إلينا منه تلامذة تلك المدرسة اللاتينية العلمانية قليلا ولا كثيراً ، ولولا أن بعض رواد الثقافة الحديثة فى مصر تأثروا باتجاهات المدرسة الحديثة فى العودة إلى الدين والدعوة إلى الصفاء والتعاون بينه وبين العلم والفلسفة فنقلوا إلينا أثمن ما أنتجه رجال تلك المدرسة من آثار اتجاهها وآرائها فى كل من فرنسا وانجلترا وأمريكا ، لولا هؤلاء لظلت حركة الترجمة فى ثقافتنا العربية الحديثة مطبوعة بطابع القرن الثامن عشر : عصر الشك والإلحاد والثورة على الكنيسة . . .

من القديم : (*)

رأى فى التصوف

للإمام الشهيد الأستاذ حسن البنا

... ولعل من المفيد أن أسجل فى هذه المذكرات بعض خواطر — حول التصوف والطرق فى تاريخ الدعوة الإسلامية — تتناول نشأة التصوف وأثره وماسار عليه وكيف تكون هذه الطرق نافعة للمجتمع الإسلامى . وسوف لا أحاول الاستقصاء العلمى أو التعمق فى المعانى الاصطلاحية ، فإنما هى مذكرات تكتب عفو الخاطر فتسجل مايتردد فى الذهن وماتتحرك به المشاعر ، فإن تكن صواباً فمن الله ولله الحمد ، وإن تكن غير ذلك فالخير أردت ، ولله الأمر من قبل ومن بعد :

حين اتسع عمران الدولة الإسلامية صدر القرن الأول ، وكثرت فتوحها وأقبلت الدنيا على المسلمين من كل مكان ، وجبيت إليهم ثمرات كل شىء ، وكان خليفتهم بعد ذلك يقول للسحابة فى كبد السماء : شرقى أو غربى فحيثما وقع قطرك جاءنى خراجك . وكان طبيعياً أن يقبلوا على هذه الدنيا يتمتعون بنعيمها ويتذوقون حلاوتها وخيراتها ، فى إقتصاد أحياناً وفى إسراف أحياناً أخرى . وكان طبيعياً أمام هذا التحول الاجتماعى من تقشف عصر النبوة الزاهر إلى لين الحياة ونضارتها فيما بعد ذلك ، أن يقوم من الصالحين الاتقياء العلماء الفضلاء دعاة مؤثرون يزهدون الناس فى متاع هذه الحياة الزائل ، ويذكرونهم بما قد ينسونه من متاع الآخرة الباقى : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون » ومن أول هؤلاء الذين عرفت عنهم هذه الدعوة — الإمام الواعظ الجليل — الحسن البصرى — وتبعه على ذلك كثير من أضرابه الدعاة الصالحين ، فكانت طائفة فى الناس معروفة بهذه الدعوة إلى ذكر الله واليوم الآخر والزهادة فى الدنيا وتربية النفوس على طاعة الله وتقواه .

(*) إنما نعنى بالقديم ماسبق نشره فى غير « المسلمون » وإن ظلت حياته نضرة متجددة وخالدة خلود الحق الذى تحمله والروح الكبيرة التى أملته .

وطرأ على هذه الحقائق ماطرأ على غيرها من حقائق المعارف الإسلامية ، فأخذت صورة العلم الذى ينظم سلوك الإنسان ويرسم له طريقا من الحياة خاصاً ، مراحله الذكر والعبادة ومعرفة الله ، ونهايته الوصول إلى الجنة ومرضاة الله .

وهذا القسم من علوم التصوف ، وأسميه « علوم التربية والسلوك » ، لاشك أنه من لب الإسلام وصميمه ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها والطب لها والرقى بها لم يبلغ إليها غيرهم من المربين ، ولاشك أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خطة عملية من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه ، وصدق التوجيه إليه ، وإن كان ذلك لم يخل من المبالغة فى كثير من الأحيان تأثراً بروح العصور التى عاشت فيها هذه الدعوات : كالمبالغة فى الصمت والجوع والسهر والعزلة . . ولذلك كله أصل فى الدين يرد إليه ؛ فالصمت أصله الإعراض عن اللغو ، والجوع أصله التطوع بالصوم ، والسهر أصله قيام الليل ، والعزلة أصلها كف الأذى عن النفس ووجوب العناية بها ... ولو وقف التطبيق العملى عند هذه الحدود التى رسمها الشارع لكان فى ذلك كل الخير .

ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية ، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيراً لها وللناس ، ولكنها جاوزت ذلك — بعد العصور الأولى — إلى تحليل الأذواق والمواجد ، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها . فخلطت بذلك الدين بما ليس منه ، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأى والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف والرغبة فى الحصول على هذه النتائج الروحية القاهرة . وأصبح كل مايكتب أو يقال فى هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين فى دين الله والحريصين على صفائه ونقائه .

وجاء بعد ذلك دور التشكل العملى للفكرة فنشأت فرق الصوفية وطوائفهم كل على حسب أسلوبه فى التربية . وتدخلت السياسة بعد ذلك لتتخذ من هذه التشكيلات تكأة عند اللزوم ، ونظمت الطوائف أحياناً على هيئة النظم العسكرية ، وأخرى على هيئة الجمعيات الخاصة . . . حتى انتهت إلى ما انتهت إليه اليوم من هذه الصوره الأثرية التى جمعت بقية ألوان هذا التاريخ الطويل ، والتى يمثلها الآن فى مصر مشيخة الطرق الصوفية ورجالها وأتباعها .

ولاشك أن التصوف والطرق كانت من أكبر العوامل فى نشر الإسلام فى كثير

من البلدان وإيصاله إلى جهات نائية ما كان ليصل إليها إلا على يد هؤلاء الدعاة ، كما حدث ويحدث فى بلدان أفريقيا وصحاريها ووسطها ، وفى كثير من جهات آسيا كذلك .

ولاشك أن الأخذ بقواعد التصوف فى ناحية التربية والسلوك له الأثر القوى فى النفوس والقلوب ، ولكلام الصوفية فى هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس . ولكن هذا الخلط أفسد كثيراً من هذه الفوائد وقضى عليها .

ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير فى إصلاح هذه الطوائف من الناس وإصلاحهم سهل ميسور ، وعندهم الاستعداد الكامل له ولعلهم أقرب الناس إليه لو وجهوا نحوه توجيهاً صحيحاً ، وذلك مالا يستلزم أكثر من أن يتفرغ نفر من العلماء الصالحين العاملين والوعاظ الصادقين المخلصين لدراسة هذه المجتمعات ، والإفادة من هذه الثروة العلمية وتخليصها مما علق بها ، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة .

وأذكر أن السيد توفيق البكرى رحمه الله فكر فى ذلك ، وقد عمل دراسات علمية عملية لشيوخ الطرق ، وألف لهم فعلا كتاباً فى هذا الباب ، ولكن المشروع لم يتم ولم يهتم به من بعده الشيوخ . واذكر من ذلك أن الشيخ عبد الله عفيفى رحمه الله كان معنياً بهذه الناحية ، وكان يطيل الحديث فيها مع شيوخ الأزهر وعلماء الدين ؛ ولكنه كان مجرد تفكير نظرى لا أثر للتوجه إلى العمل فيه . ولو أراد الله والتقت قوة الأزهر العلمية بقوة الطرق الروحية بقوة الجماعات الإسلامية العلمية ؛ لكانت أمة لانظير لها : توجه ولاتتوجه ، وتقود ولا تنقاد وتؤثر فى غيرها ولا يؤثر شىء فيها ، وترشد هذا المجتمع الضال إلى سواء السبيل .

مسئولية الولاية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله » .

« رواه الحاكم فى صحيحه »

مع العارفين

الإمام الممتحن : أحمد بن حنبل

(٤)

. . . فدخل أحمد بن حنبل . . . شيخ اسمر اللون ، مديد القامة ، قد قوسه مرُّ السنين وإلحاح المحن وتعاقب السفرات الطوال سيراً على القدم ... يجلله مشيب وقور ، ويسطع من وجهه ورع صارم جاد لا يلبث من يراه أن يتأثر به .

ونظر المعتصم يتفرس فى الشيخ القادم عليه فإذا طلعة الشيخ الجليـل تروعه بما لم يجد له مثيلا فى حياته . . . لقد أحسَّ كأن قلبه يتحول فى صدره من مكان إلى مكان .

إن ابن أبى دؤاد على طول صحبته للخليفة ، وعلى غزارة علمه وبراعة منطقه لم يؤثر فى نفسه قط بمثل ما أثرت طلعة ذلك الشيخ الجليـل الورع ! ! . . وارتعشت نبرات صوت الإمام المريض الهزيل وهو يحيي أمير المؤمنين :

السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وأحسَّ المعتصم كأن نبرة الصوت الجليل المرتعش تملأ قلبه هيبة ، وتغسل من نفسه للموجدة ؛ فلم يتمالك أن قال للامام :

— ادْن .

فدنا الإمام الممتحن وهو يرسف فى أربعة أغلال ثقال من الحديد ، قد أوهنت قوته وأثقلت قدميه عن المسير ، فكاد يخر على وجهه وهو يدنو من الأمير .

وزاد تأثر المعتصم لما يرى ، فقال للامام :

— ادْن .

فاستمر الإمام يدنو وهو يتعثر فى أقياده ، وكان قد ربطها فى تـكة سرواله ، وأمسك التـكة بيده يرفع بها ثقل الأقياد عن قدميه ، فلم يكن ذلك المنظر المهين الأليم مما يتلاءم مع الجلال البادى على الشيخ المهيب ؛ فرق له المعتصم وزاد تأثره . وقال :

— ادْن .

وما زال المعتصم يستدنيه حتى قال له :

— اجلس .

فجلس أحمد والقوم صامتون مأخوذون . فالتفت المعتصم إلى المعتزلة وقال : أليس قد زعمتم لى أنه شاب حدث السن ، وهذا شيخ مكهل ؟ !

فسكت المعتزلة ولم يجيبوا بشيء .

فيسترد أحمد بن حنبل قوته ، ويأنس بعض الشيء إلى إنصاف المعتصم فيقول : أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى الكلام ؟

المعتصم : تكلم .

أحمد : إلام دعا ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

المعتصم : دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

أحمد : فأنا يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله .

ونزلت كلمات أحمد فى صدق لهجته وعمق يقينه على قلب المعتصم كأن لم يسمع أحداً ينطق بالشهادة بين يديه إلا اليوم . . واستطرد أحمد رضى الله عنه يقول :

— إن هؤلاء يا أمير المؤمنين يدعوننى أن أقول إن القرآن مخلوق ، وهو شيء لا أجده فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . يا أمير المؤمنين : حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال حدثنى أبو حمزة قال سمعت ابن عباس يقول : إن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإيمان بالله ، فقال أتدرون الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم » ؛ فهذا ما يرويه جدك ابن عباس عن ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلم الناس الإيمان ، وليس فيه شيء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن .

وتحدر الإسلام الصافى الذى لا يشوبه كدر ولا تعقيد إلى قلب المعتصم الساذج من فم هذا الإمام الورع الصادق فلم يتمالك المعتصم أن قال :

— إنى لم آمر فيك بشيء ، ولولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى لما تعرضت لك !

ثم أطرق قليلا وكأنه قد ضجر من تلك الفلسفة التى يراد إدخالها على عقائد الناس وهو نفسه ليس منها فى قليل ولا كثير ؛ والتفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له :

— ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟

فقال أحمد بن حنبل فى نفسه : الله أكبر ! ! إن فى هذا لفرجا للمسلمين !

وكأن المعتصم رأى أنه لم ينصف المعتزلة ، وأنه لم ينفذ وصية أخيه المأمون إليه فى مناصرة المعتزلة ، وقمع ما عليه أحمد بن حنبل وأضرابه ، فاستدرك قائلا لهم :

— ناظروه وكلموه

فأبطأ المعتزلة وكأنهم أخذوا بما فجأهم من أمر الخليفة ، فقال المعتصم :

— ناظره يا عبد الرحمن . كلمه . !

— عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟

— أحمد بن حنبل : لا يجيب .

— المعتصم : أجبه يا أحمد .

— أحمد بن حنبل يسأل عبد الرحمن : ما تقول فى علم الله ؟

— عبد الرحمن : لا يجيب .

— أحمد بن حنبل : إن القرآن من علم الله ؛ فمن زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن علم الله مخلوق ، ومن قال بذلك فقد كفر .

— عبد الرحمن : لا يجيب .

— المعتزلة : يا أمير المؤمنين لقد كفرنا وكفرك ، ولقد كفر بهذا الكلام رسولك بالأمس حين قال له : إن علم الله مخلوق .

— فلا يلتفت المعتصم إلى تحريشهم .

— فيرتبك المعتزله قليلا ، ثم ينبرى عبد الرحمن فيقول :

— إن الله كان فى الأزل ولم يكن معه قرآن .

— أحمد بن حنبل : لقد قلت إن القرآن من علم الله ، فإذا قال قائل كان الله ولا قرآن معه فكأنه قال : كان الله ولا علم له ...

— أحمد بن أبى دؤاد : هو ضال مضل مبتدع يا أمير المؤمنين ، وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم !

— المعتصم : ما تقولون فيه ؟

— الفقهاء والقضاة : هو ضال مضل مبتدع ...

فيتلطف المعتصم إلى الإمام ويقول له :

— أجبنى يا أحمد إلى هذا حتى أجعلك من خاصتى وممن يطأ بساطى ...

— أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، يأتونى بآية من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتى أجيبهم إليها .

أحمد بن أبى دؤاد : فأنت لا تقول إلا ما فى كتاب الله وسنة رسوله ؟

— أحمد بن حنبل : وهل يقوم الإسلام إلا بهما ؟

— رجل من المعتزلة : إن الله يقول : « خالق كل شيء » والقرآن شيء فهو — إذاً — مخلوق .

— أحمد بن حنبل : إن هذه الآية عامة أريد بها التخصيص لا العموم كقوله تعالى عن الريح التي أهلك بها قوم هود : « تدمر كل شيء بأمر ربها » فهل دمرت كل شيء حقاً أو أنها لم تدمر إلا ما أراد الله ؟

المعتزلي : لا يجيب :

معتزلي آخر يقول : إن الله يقول : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » فهل يكون محدثاً إلا المخلوق ؟

أحمد بن حنبل : إن الذكر الذي هو القرآن جاء في قوله سبحانه : « والقرآن ذي الذكر » فهو هنا معرف بالألف واللام وفي الآية الأولى بدون ألف ولام فهذه غير تلك .

أحد المعتزلة — إن عمران بن حصين يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الله خلق الذكر » .

وفي ذلك تقرير من النبي عليه السلام بأن القرآن مخلوق .

أحمد بن حنبل : أخطأت فالرواية التي رويناها عن عمران وعن غيره من ثقات أهل الحديث هي : « إن الله كتب الذكر » .

معتزلي آخر : أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تقرب إلى الله بما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه ؟ »

أحمد بن حنبل : بلى ، قد روى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المعتزلي : إن فيه دليلا على أن القرآن مخلوق !

أحمد بن حنبل : لست أجد فيه هذا الدليل .

المعتزلي : إذا قرأت القرآن لتتقرب به إلى الله ، ألست تتلو كلمات مؤلفة من حروف وأصوات ؟ وهل يتألف من حروف وأصوات إلا الكلام المخلوق ؟ فهل تجد لك مفراً بعد إذ أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نتقرب إلى الله بتلك الألفاظ المخلوقة إلا أن تسلم بأن القرآن مخلوق ؟

أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ، وأما أفعالنا فيه إذا كتبناه أو تلفظنا به فهي مخلوقة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « زينوا القرآن

بأصواتكم » فالقرآن — إذاً — غير أصواتنا المخلوقة التي نزينه بها ... الكلام كلام البارئ ، والصوت صوت القارئ .

معتزلي آخر : إن ابن مسعود يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ماخلق الله من جنة ولانار ولاسماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي » وهذا صريح في أن آية الكرسي مخلوقة ، وهي من القرآن .

أحمد بن حنبل : فهل تجد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخلق وقع على آية الكرسي ؟ إن الحديث صريح في أن الخلق إنما وقع على الجنة والنار والأرض والسماء ولم يقع على القرآن .

أحمد بن أبي دؤاد : إن تشبثك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق معناه أنك تنسب إلى الله جوارح يتكلم بها كالمخلوقات ، وتشبيه الله بالمخلوقات كفر .

أحمد بن حنبل : هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ، لاعدل له ولاشبيه ، وهو كما وصف نفسه ... حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . « إن الله كلم موسى بمائة ألف كلمة ، وعشرين ألف كلمة ، وثلاثمائة كلمة وثلاث عشرة كلمة فكان الكلام من الله والاستماع من موسى ، فقال موسى : أي رب أنت الذي تكلمني أم غيرك ؟ قال الله تعالى : ياموسى أنا أكلمك لارسول بيني وبينك » . فهذا مايخبر به رسول الله عن ربه ، وأنا لاأقول إلامايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أحد المعتزلة : كذبت على رسول الله

أحمد بن حنبل : إن يك هذا كذبا مني على رسول الله فقد قال الله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » وقال : « ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » فهو قول منه سبحانه وليس خلقا .

وهكذا ظلوا يسألونه وهو يجيب ويعلو صوته عليهم ، حتى اقترب الزوال دون أن يفحموه أو يلزموه الحجة ؛ فقال لهم المعتصم قوموا وخلوني مع أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق . . .

صنعته يدُ الإله !

لسماحة القاضي محمد محمود الزبيري

شاعر اليمن

السماواتُ شـيِّقاتٌ ظِماء والفضاء والنجومُ والأضواء

والهدى والأملاكُ والوحيُ والتنـزيلُ والمعجزاتُ والأنبياء

والغيوث السمحاء والوابلُ المدْ رارُ والمُعصِراتُ والأنواء

كلها لوعةٌ إلى المصطفى الهـا دى، وشوقٌ ونشوةٌ وازْدِهاء

تنظرُ البقعة التي تسطعُ البُشْرى عليها ويهتفُ البشراء

والنبي الكريم يولد فى بيـتٍ فقيرٍ يثوى بهِ فقراء

حملوهُ طفلًا كما يحمل الأطـفالُ فيهمْ ويحضنُ الأبناء

ليسَ يدرونَ ماتمدُّ يدُ اللـهِ إليْهِمْ وما يُريدُ القضاء

***

ودعا اللهُ والديه إليـه ليُرَبِّى الحبيبَ كيف يشاء

وعجيبٌ يُسمَّى يتيماً ويُدعىٰ وهو نجمٌ قد أنجبته السماءُ

صنعتهُ يدُ الإلهِ كما تُصْـنع فى البحر درةٌ عصماءُ

واصطفتهُ لها فماذا عسى أن تصنعُ الأمهات والآباءُ

نفحتهُ بروحها فإذا البيـدُ ضلوعٌ تؤويه أو أحناءُ

وإذا القفرُ وَهُوَ جدبٌ رياضٌ وإذا الأفق وهو ليل ضياءُ

وإذا الصخر أكبدٌ ماؤها الرحْـمةُ والحبُّ والهُدى والوفاءُ

وإذا الغابةُ المخيفةُ أمنٌ وإذا الأذؤبُ الخبيثة شاءُ

وإذا الكونُ بَيْن عينيه سِفْرٌ تتجلَّى لهُ بهِ الأشياء
علّمت ذلك اليتيمَ فما العِـ لمُ وما حُكمُهُ وما الحكماء

* * *

من لقلبِ الظمآنِ فى وَقْدِ صحرا ء تلظتْ مِنْ حرِّها الأفياء !
من لأخلاقه النبيلةِ فى شَعْـ بٍ غريقٍ فى إثمه النبلاء !
من لأهدافه وليس وراءَ الْـ بَيْتِ إلا الصحراء والظلماء !
يقشعرّ التسبيح فى حرمِ اللـه إذا هَمْهَمَتْ به الحُنَفاء
من لتشريعهِ الرحيمِ ودينُ الـ قومِ فيهمْ تناحرٌ ودماء
ليس إلا الفِرار بالْخُلقِ الطا هرِ والاعتصامُ والاحتماء
ليس إلا السماء لِلْمَلَكِ الإنـ سانِ تؤوى فؤادَه أو حراء

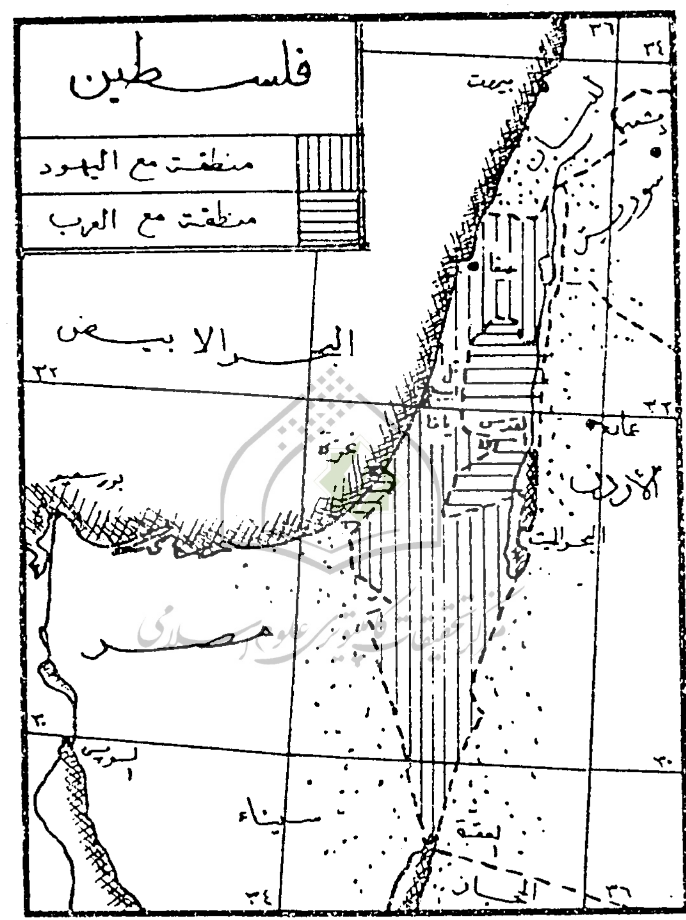
* * *

وانتحى المُصطفَى إلى الجَبَل الصا متِ حيثُ القُدْسيّةُ الشمّاء
حيث لا شاغلٌ هناك عن اللـهِ ولا ضجةٌ ولا ضوضاء
حيث يطوى فى ذلك الصمت ما فى الْـ ـكونِ إلا الحقيقة العلياء
وهبَ اللهُ ظلمةَ الغارِ نُوراً منه تُمحَى فى ضَوئِهِ الأضواء
جبلٌ فى مجاهل البيدِ لا تَدْ رى بأفياء ظله البيداء
رفعتْ رأسَهُ على كل طودٍ عـزةٌ أحمديةٌ قعساء
تحوى ما حوت جوانح جبريـل وما أكرمت به سيناء
فجّر الله فى حراءَ ينابيـ عَ الهدى وهو صخرة صماء
لكأن النبى فيه لسانُ الْـ ـكون يحكى عن دوحه ما تشاء
نبضت فى طموحه قوة اللـه فخفَّ الثرى وهان الفضاء
عاكفٌ فى حراءَ لا العيش يصبيه ولا صحبه ولا العشراء
وإذا جبريل يبدو كما تبـ ـدو الأمانى ويستجاب الدعاء

حاملا ماتنوء عن حمله شمـ   سُ الضحى والكواكب الزهراء
كلمات الإله فيها من اللـ   ـه جلالٌ وقوةٌ وبقاء
وبآياتها النظام الذى قا   مت به الأرض واستنارت ذُكاء
تلمس القبر لمسة فإذا الميِّـ   ـتُ حيٌّ تعنو له الأحياء
من تعامى فى يومها جاءه يو   مٌ عسيرٌ ونكبةٌ عسراء
لو وعاها حِراء لاندكّ أو ذا   بَ وذابت من حوله الصحراء
ليس إلا فؤاد أحمد يؤويـ   ـها وإلا الملائك الأصفياء
غطّه جِبْرِيلُ فارتاعَ لمّا   ظَنَّ أن الذى به إغماء
إنها صدمةٌ يُرَبّى بها قلـ   ـبُ نبيٍّ ومِحْنَةٌ وابتلاء
حملتها ضلوعُ جبريلَ ساعا   تٍ فناءت ومسّها الإعياء
واصطلاها قلب النبيِّ فما ضـ   ـجّ ولا نال من قواه العناء
قيل اقرأ وحىَ السماء وهذا   جبْريلٌ وهذهِ العلياء
قم فإن الأصنامَ تحتلُّ بيت اللـ   ـهِ والمفسدون والسفهاء
ضجت الأرض والسماء فما استـ   ـيقظ عقل ولا صحا عقلاء
ستلاقى الأذى من الناس والبلـ   ـوى وتصميك منهمُ الأرزاء
سوف يعطونك الجزيل وماهم   أصدقاء ولا همو أسخياء
إن هذى الدنيا أمامك فاحذر   سُمَّها فهى حيةٌ رقطاء
لاتبع سؤدد السماء فما فى   منطق الربح أن تباع السماءُ
فى يديك النجومُ زُهراً فما الصحـ   ـراءُ إن حزتها وما البيضاءُ
كل نفس لها إليك اشتياقٌ   كل فضل له إليك انتماءُ
قم وأنذر فالشرّ قد طبّق الأر   ض وعمّ الظلامُ والإدجاءُ
واستلم موكب الخليقةِ أنت النـ   ـجمُ فى ليلها وأنت اللواءُ

الأرض المباركة فلسطين

● إن فلسطين بلاد إسلامية منذ أربعة عشر قرنا ، وقد ظلت الموجات العربية قبل الفتح الإسلامى وبعده تتوالى عليها من آن لآخر، وإن الصبغة العربية راسخة فيها كل الرسوخ . ومن برهان ذلك أسماء المناطق فيها مثل « مرج ابن عامر » وقرى بنى صعب وبنى زيد والحارثية والقسطل ووادى



على وجبل القيسية وبنى نعيم إلى غير ذلك من أسماء الأماكن والقبائل والحمائل والعشائر العربية فى مختلف أنحاء فلسطين . وكانت فى فلسطين أشد الحملات الإسلامية لمقاومة الصليبيين بقيادة صلاح الدين ومن جاء بعده من الملوك والسلاطين المجاهدين حتى أجلوهم عنها وعن سائر بلاد المسلمين وبقيت إسلامية منذ ذلك التاريخ . وقد لبثت فلسطين تحت الحكم العثمانى نحو أربعمائة سنة حتى احتلها الإنجليز سنة ١٩١٨ .

● تبلغ مساحة فلسطين ١٠٤٢٩ ميلا مربعاً تساوى ٢٧ مليون دونم وهى تؤلف القسم الجنوبى من سوريا « بلاد الشام » .

● أما حدودها الرسمية كما كان الحال فى زمن الاحتلال البريطانى ، فمن الجنوب تحدها أراضى سيناء المصرية حتى رأس طابة على خليج العقبة ، ومن الشرق نهر الأردن وأرض « مملكة الأردن » ومن الشمال أراضى جمهوريتى سوريا ولبنان ، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط .

● ولهذا الموقع المتوسط بين بلاد الشرق الأوسط من جهة، وقارات العالم القديم الثلاث من جهة أخرى، وإشرافها على قناة السويس وصدر البحر المتوسط ونهاية البحر الأحمر، كل ذلك جعل منها موقعاً استراتيجياً فريداً ظهرت أهميته باحتلال اليهود القسم الحيوى منه، إذ صعب الاتصال بين البلاد العربية، فقد كانت فلسطين جسراً بينها جميعاً. وخذ مصر مثلا، فإنها لم تعد تتصل براً بسوريا ولبنان والأردن والحجاز، ومن ورائها العراق وتركيا وسائر بلاد الشرق، وسبل المواصلات بينها الآن الطرق الجوية الباهظة والطرق البحرية الطويلة؛ وحتى هذه أصبحت سلامتها مهددة بعداء اليهود.

قضية فلسطين :

لم تعد فلسطين غريبة على أسماع المسلمين وقلوبهم كما كانت إلى عهد قريب؛ فقد أصبحت تنبض بها اليوم عواطف المسلمين بالحب والتأييد: بحب أساسه العقيدة وأخوة الإسلام، وتأييد هو ثمرة الوعى المبارك الذى تتفتح براعمه فى شتى أقطار الإسلام. وبحسبنا لذلك إذا تعرضنا لهذه القضية من الناحية التاريخية أن نذكر الخطوط العريضة دون التفصيل :

كان العرب يؤلفون جزءاً مهما من كيان الدولة العثمانية، ورغم تمتعهم بجميع أنواع الحقوق التى كان يتمتع بها الترك؛ فقد جنح بهم قادتهم لاستكمال سيادتهم القومية وسعوا لتحقيق غايتهم من كل سبيل وكان آخر هذه الأعمال نشوب الثورة العربية الكبرى بزعامة الملك حسين بعد عقده لذلك معاهدة سنة ١٩١٥ مع الإنجليز. وقد دخلت فلسطين فى هذه العهود دون أقل ريب. وفى سنة ١٩١٧ زحفت الجيوش البريطانية على فلسطين وبدأت الحرب فيها وبدا نجاح الحملة أمراً محققا، وحين أصبح فتح القدس قريباً ظهر للانجليز أن تلويحهم بالوطن القومى لليهود يجتذب قلوب يهود العالم ومنهم الذين فى ألمانيا نفسها إلى جانب الحلفاء فبدأت المفاوضات فى شأن هذا الوعد بوساطة البارون مارك سايكس الإنجليزى، وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ كتب وزير خارجية بريطانيه — اللورد بلفور فى ذلك الحين — إلى اللورد روتشيلد مايلى: يسرنى أن أزف إليك التصريح الآتى المملوء عطفا على أمانى الصهيونية: « تنظر حكومة جلالته بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين لليهود وستبذل جهدها لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف على أن لا ينتقص شىء من حقوق الطوائف غير اليهودية فيها دينية كانت أو سياسية » ولسنا هنا فى مقام المتناول للتصريح بالنقد والتحليل وإنما نعجب من تسميته الأكثرية من أهل فلسطين العرب (الطوائف غير اليهودية) كأنهم هم اللصوص أو الدخلاء الغرباء. ذهل العرب وفزعوا وثارت عاصفة من الاحتجاج على بريطانيا شديدة وكان قلق الحسين بالغاً حداً أثار مخاوف البريطانيين من أن يؤدى إلى توقف الثورة العربية ولذلك أرسلت إليه الحكومة البريطانية تأكيداً صريحا بأنه لن يسمح بإسكان اليهود فى فلسطين إلا بالقدر الذى يتفق مع حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية. وحينئذ اطمأن ساسة العرب وزادهم اطمئناناً أن الحرب وضعت أوزارها بعد ذلك على مبادىء الرئيس ولسن ومنها مبدأ تقرير المصير. وصرح اللورد اللنبى بأن الغاية التى رمى إليها الحلفاء من خوض غمار الحرب فى الشرق هى تحرير الشعوب التى تحت الحكم التركى وتأسيس حكومات وطنية تستمد سلطتها من رغبة السكان الوطنيين ومحض اختيارهم. ولكن بريطانيا مضت رغم ذلك فى فكرة الوطن القومى ولم يمر وقت طويل حتى منحت بريطانيا الانتداب على فلسطين وجعلت مسئولة عن تنفيذ تصريح بلفور، وجاء فى المادة الثانية من قانون الانتداب أن مهمته هى: « وضع البلاد

فى حالات إدارية وسياسية واقتصادية من شأنها تسهيل إنشاء الوطن القوى اليهودى ، وقد قامت حكومة الانتداب بهذه المهمة أتم قيام !

لقد كانت فلسطين حين الاحتلال الإنجليزى عربية الصبغة وكان عدد سكانها ٧٥٠ ألفا منهم حوالى خمسين ألفا من اليهود . فتكون نسبتهم إلى مجموع السكان نحو ٦٪ . وجدير بالذكر أن عدد اليهود فى فلسطين كان فى سنه ١٨٤٥ ، ١٢ إثنى عشر ألفا وفى سنة ١٨٨١ ، ٢٥ ألفا . ومنذ وقعت البلاد تحت الاحتلال البريطانى فتح الإنجليز أبواب الهجرة اليهودية على مصاريعها حتى بلغ عدد اليهود السكان فى سنة ١٩٣٩ نحو ٤٠٠ أربعمائة ألفا من مليون و ٤٠٠ ألف مجموع سكان فلسطين ، وتدل الإحصاءات الرسمية على أن عدد المهاجرين اليهود الذين وصلوا فلسطين منذ قامت حكومة إسرائيل سنة ١٩٤٨ إلى منتصف سنة ١٩٥٢ نحو ٦٥٠ ألفا وما زالت عشرات الألوف منهم تصل فلسطين تباعا رغم ما يعانون من الأزمة الاقتصادية وقلة المساكن لأنهم يريدون أن يصل عددهم إلى مليونين فى وقت قريب .

جهاد عرب فلسطين :

وظلت القضية بمعزل عن العالم العربى قرابة الثلاثين عاما لم تنقطع فيها ثورات عرب فلسطين فقد وقفوا وحدهم فى الميدان يذبون عن وطنهم ويحاربون الإنجليز واليهود على السواء إذ استطاع اليهود فى ظل الانتداب البريطانى أن يثبتوا مستعمراتهم ويشيدوها فى كل بقعة فوق أرض فلسطين ومن تحت أرضها ، محصنة بالأبراج ومجهزة بالمدافع ، ولا يتصور — فى ميزان العقل السليم — أن يتم ذلك الاستعداد الهائل بغير علم الإنجليز . فى الوقت الذى كان الإنجليز فيه يعاقبون بالإعدام كل عربى يحرز سلاحاً ، وثبت العرب فى كفاحهم رغم التفاوت الواضح فى ميزان القوى ذلك لشعورهم بأنهم إنما يدافعون عن مقدسات للمسلمين غالية عزيزة .

فهناك المسجد الأقصى الذى أسرى الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إليه ومنه مكان المعراج الشريف إلى السماوات العلى إلى حيث دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين . وفى الجدار الغربى منه يوجد مكان البراق النبوى الشريف حيث يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجل فيه من فوق البراق ليلة الإسراء (وهو مكان مبارك يزوره المسلمون) .

وفلسطين إلى ذلك ملأى بقبور الأنبياء ونفر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين ممن نزلوها فى عهد الفتوح الإسلامية ولا تخلو مدينة من مدن فلسطين وقراها الكبرى من مقبرة للشهداء ، وفيها مكتبات إسلامية ومخطوطات أثرية نادرة ومساجد عديدة عظيمة أصبحت كلها معرضة للهدم والإزالة وانتهاك الحرمة بأيدى اليهود . فقد دأبوا على هدم المساجد بالفعل ونبش القبور وإزالة معالمها . وبهذا تتجلى عداوتهم الباغية .

ثار العرب على هذه المؤامرة الاستعمارية عدة ثورات دامية فكانت ثورة القدس سنة ١٩٢٠ ثم ثورة يافا سنة ١٩٢١ وكان من أشد ثورات عرب فلسطين ثورتهم سنة ١٩٢٩ بدأت فى القدس على أثر مظاهرة صاخبة حاشدة نظمها اليهود مطالبين بموضع البراق الشريف فغضب المسلمون لهذا التحدى وقاموا بمظاهرة عنيفة تحولت إلى ثورة عاصفة لم تلبث أن انتقل لهيبها إلى الخليل وصفد ويافا وحيفا وغيرها من أنحاء فلسطين وفى سنة ١٩٣٣ نشبت الثورة فى يافا والقدس وحيفا ونابلس . وفى عام ١٩٣٦ كانت الثورة الكبرى والإضراب العام الشامل اللذان استمرا ستة أشهر كاملة ثم

توقفت الثورة لتدخل ملوك العرب فلما فشلت مساعيهم وخاب الأمل فيهم عادت الثورة إلى الاشتعال سنة ١٩٣٧ واستمرت ملتهبة إلى صيف سنة ١٩٣٩ .

فى هذه الثورات الدامية استعذب أهل فلسطين الموت فى سبيل الله وضحوا بالنفس والنفيس ، وكم بذل عرب فلسطين أرواحاً غالية ودماء زكية ولاقوا من عنت الإنجليز ومظالمهم ، ولكنهم مع ذلك كبدوا البريطانيين وحلفائهم اليهود خسائر كبيرة فى الأرواح والأموال واتلفوا للجيش البريطانى الكثير من قطاراته الحربية ومعداته العسكرية حتى اضطرت انجلترا أن تبعث إلى فلسطين فى سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٧ بجيش جرار وأسارب كثيرة من طائرات القتال والسفن الحربية وعلى رأس ذلك المارشال ديل والمارشال وايفل من كبار قادة جيشها .

وأخيراً كانت المهزلة التى يعرفها الجميع ولا يزال عرب فلسطين يعانون المر من بلاياها . وحسبنا هنا أن نشير إلى أن خذلان العرب فيها كان لإخلادهم إلى الطريق السياسى العقيم فى علاج القضية ، ولقد قال بن غوريون ، وهو يعنى ما يقول :

« إن ما أحرزناه من النجاح ٩٧،٥٪ منه ، يعود الفضل فيه للسياسة ، ٢،٥٪ منه فقط لجهودنا الحربية » .

* * *

إن قضية فلسطين هى قضية الإسلام والمسلمين الأولى ، والمعركة الهزيلة التى حدثت قبل أربع سنوات لم تكن إلا بداية معركة رهيبة تتحالف فيها كل قوى الدنيا على الإسلام . . . . . وقد كان المسلمون بعد عصر الوطنيات الضيقة والقضايا المتفرقة التى مزقت شملهم . . . . كانوا فى حاجة إلى قضية واحدة تجمع شملهم من جديد . . . ويستشعرون قداستها جميعا ، ويتكشف لهم فيها وحدة أعدائهم الكثيرين حين يتصل الأمر بالإسلام والمسلمين . . . . . . وأهم من ذلك كله أنهم كانوا فى حاجة إلى جبهة ترد لهم طبيعتهم المقاتلة التى كانت فيهم أيام صلاح الدين ، والتى انبعثوا بها بعد فترة من الذل والهوان لا يشبهها فى التاريخ إلا عصرنا الذى نعيش فيه ! !

اللهم انفخ فى المسلمين من روحك !

اعتـــذار

يؤسفنا أن يصل العدد الأول إلى حضرات القراء متأخراً عن موعده أسبوعاً لسبب لا حيلة لنا فيه ؛ وهو اختفاء نوع الورق الذى تعودنا الطبع عليه من السوق ، وقد حاولنا جهدنا أن نحصل عليه بأى ثمن فلم نوفق ، فاخترنا أخيراً نوعاً قريباً منه .

ونحن نرجو أن يعذرنا الأخ القارىء ، ونعد من جانبنا ألا يتكرر هذا التأخير ، ونسأل الله أن يوفق ويعين .

فى أفق العالم الإسلامى

معركة قديمة :

إذا كان جهل الأمة الإسلامية بنفسها ورسالتها جعلها تتهالك أمام الفتنة العاتية والثقافة المسمومة التى نظمتها مؤامرات أعداء الإسلام الكثيرين ، فان جهلها بهؤلاء الأعداء قد مكن لمؤامراتهم كل تمكين وجعلهم ينالون منها ويعبثون بها وهى فى غفلة تامة عما يراد بها ... وكم من عدو لبس لها ثوب صديق فآوته وأكرمته ، بل وتتلمذت عليه وأخذت عنه ، وربما وضعته موضع الزعامة وهو يجتث أصول عقيدتها ومقومات شخصيتها ... لذلك كانت معرفة المسلمين لأعدائهم أساسا يجب أن يسبق كل خطة وأن تتحد به سياسة العالم الإسلامى . و « العداء » الذى عاناه الإسلام والمسلمون قديم ، بدأت طلائعه مع طلائع الإسلام فى حجر نبيه صلى الله عليه وسلم ، وكان وجهه السافر الصريح أنه عداء للعقيدة والدعوة ، ونكران للوحى وتحد لأمر الله عز وجل ، وكانت جريمة هذا العداء فى ميزان أصحاب الدعوة جريمة بهذا المعنى « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » ، واستمرت المعركة بين العقيدة وأعدائها ولكن طبيعة المعركة بقيت واحدة لا تتغير : « الذى آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . ولما حادت المعركة عن طبيعتها يوما فى أنفس نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعقبهم الله بالهزيمة فى أحد : « وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » .

وهكذا مضت معارك الإسلام واتصلت حلقاتها ، وتألبت فيها على المسلمين قوى رهيبة ما أكثر ما اختلفت فيما بينها ولكنها اتفقت دائما على مطاردة الإسلام ، ولم تأل جهداً فى استئصال شأفته . وكتب تاريخنا من ذلك أسفاراً دامية يمكن أن نجعل عنوانها الآية التى نسيها المسلمون : « ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » — وإذا صح أن بعضا من هذه القوى لم يغره بالعالم الإسلامى إلا خيراته وموارده الاقتصادية ولم يدفعه إلى الاعتداء عليه هوى دينى معلن أو مستتر ... إذا صح هذا ، فان هؤلاء المعتدين ما لبثوا أن وجدوا دون مطامعهم المادية عقبة كؤددا يجب أن يحسبوا حسابها ، وجدوا دينا من نوع جديد ، وكتابا سماويا قويا صريحاً غير الطلاسم التى ألفوها ... وجدوا قرآنا يتحدث عن العبادة كما يتحدث عن القتال ، ويجعل بذل الدم فى سبيل الحق أعز القربات إلى الله ... وجدوا نظاما لا يكتفى بالدعوة الجميلة النظرية إلى مكارم الأخلاق ولكنه يفرض لحمايتها حدوداً رهيبة فى قوانين الأمة ، ويجعل تطبيق هذه القوانين شرط صحة الإيمان ، وجدوا شريعة تزرع فى القلوب حباً عالياً لا يسمح بفرقة يستفيد منها غاصب ، وتكفل للمجتمع نظافة لا تبيح للمغريات أن تنال من تماسك الأمة شيئاً ، وتشعل فى المشاعر جذوة الويل لمن يستثيرها فيصلى نارها ...

ولو أن هؤلاء المعتدين أرادوا حقا أو تجارة بريئة ما عناهم من كل ذلك شىء ، ولكنهم معتدون ، وللمعتدى ضراوة تنكر الحدود ، وغاية لا يدركها إلا بترويض فريسته حتى تستسلم له ، فكيف يسمح إذاً بسلطان دين خطير كالإسلام ؟ إن من مهمته إذا وجد الدين ذا سلطان أن يقوضه ،

وإذا وجده نائماً أن يقطع أسباب يقظته ... وهكذا يلتقي الأعداء جميعاً في محاربتهم للاسلام وإن تباينت أساليبهم ، فلانجلترا أسلوبها ، ولأمريكا أسلوبها ، ولفرنسا أسلوبها ، ولهولندا أسلوبها ، ولروسيا أسلوبها ، ولإيطاليا أسلوبها ، وللحبشة أسلوبها ، ولأسبانيا أسلوبها ، وللهندوك أسلوبهم ... وهلم جراً ... وهلم جرجره .

وأنت حين تقرأ التاريخ في ضوء هذا المعنى تفهم أشياء كثيرة ، وحين تقرأ الواقع بعد ذلك تتجلى لك حقائق خطيرة ، ترى مثلا — وهو مثل قريب — كيف قضت تركيا حين كانت مقر الخلافة العثمانية — زمناً طويلا تعاني المر من عداء الدول ومؤامراتها وكيف تألبت عليها قوى الدنيا من حرب إلى حرب ومن دسيسة إلى دسيسة ، ولكننا نرى تركيا نفسها بعد أن ذهبت عنها الخلافة ، وبعد أن سلخ أتاتورك أوضاعها من أحكام الإسلام وألبسها القبعة وحرمها من اللغة العربية (وإن كان لم يستطع أن يقطع شجرة الإسلام من جذورها ، لأن جذورها في قلوب لا يحكمها الجيش والقانون وفي يد الله الذي أفضى إليه أتاتورك بما قدم وهو عنده الآن يلقى حسابه) ... نرى تركيا في الأعوام الثلاثين الأخيرة سالمة آمنة لا يعتدي عليها أحد ، فإذا ذكرنا مع ذلك قول الله سبحانه « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ! » لم يسعنا إلا أن نقول : صدق الله العظيم !! وقد حدثني رجل كبير في العالم الإسلامي ، ويروى هذا الخبر معه ثلاثة آخرون كبار ، أن الذي قام به أتاتورك من إبعاد تركيا عن الإسلام لم يكن من بنات فكره ولا عقله المدهش ! ولكنها شروط أملتها عليه الدول في لوزان ، ويعلم ذلك زملاؤه الكبار الذين لا يزال بعضهم حياً يرزق !

وقد عجب كبار ضباط الجيش المصري وغيرهم ، وكان يحضر جمعهم اللواء الرئيس محمد نجيب ، حين استفتح الأستاذ الدكتور مصطفى الحفناوي محاضرته عن قناة السويس في نادي الجيش بقوله إنه وقع على وثيقة خطيرة تثبت أن اقتراح حفر القناة مشروع قديم للصليبيين أريد به أن تقام في منطقة القناة دولة صليبية تمتد من بورسعيد إلى بولاق في القاهرة لتمزق كيان الدولة الإسلامية ... عجبوا من ذلك ، ولو أضاف الدكتور إلى ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين اقترح عليه أن يحفر قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر قال : أخشى على المسلمين من الفرنجة ، إذا لزاد عجبهم ، ولعلموا أن المحور الذي تدور عليه حوادث التاريخ محور آخر تماما غير الذي تعلمناه في منهج دانلوب ، ولأدركوا من ذلك أنه ما لم يتغير الأساس الذي قامت عليه معارفنا في عهود الذل والحيرة ، وما لم تتقرر مناهج التعليم والتربية وسياسة الأمة كلها على فلسفة واحدة في معرفة العدو والصديق ، وأساس العداوة ، وأساس الصداقة ، ما لم يتحقق ذلك كله فإن كل أمل سراب ، وكل الزهور والرياحين التي تأخذ الأبصار حيناً ، ليس يحملها إلا شوك ضارب الجذور ، لا تلبث هي أن تذبل عليه ثم تجف ، ويبقى الشوك القديم ليقض المضجع ويدمي الأيدي الغافلة . . . استأصلوا الشر من جذوره ، استأصلوه من حيث نبت ، وازرعوا زرعة الخير في هذه الأعماق وابدأوا بالألف والباء لا بالياء « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

هل نحن مسلمون ؟

هل رضينا — ما دمنا مسلمين — أن نحمل أمانة الإسلام كاملة ؟

هل حكمنا الإسلام وتاريخ الإسلام في معرفة العدو والصديق ؟

هل نعاهد الله على الجد في أخذ أنفسنا وأوضاعنا بالإسلام ؟

هذه أسئلة لا بد لها من جواب ، لا على المنابر فقد ضجت المنابر من خطبائها ، ولكن في واقعنا الأليم المرير .

أخبار متفرقة

● أثارت مشكلة التعويضات الألمانية لإسرائيل ضجة شديدة وحنقا فى الأقطار الإسلامية جميعاً، واحتجت جامعة الدول العربية لدى حكومة ألمانيا الغربية على ذلك ، ونحن وإن كنا لا نسيغ بحال أن تنزل ألمانيا إلى هذه الهاوية من حيث تنكرها لمبادئها القديمة فى محاربة رذائل اليهود ، وتنكرها للصداقة القديمة التى تربطها بالعرب والمسلمين ، ولا نقبل لها فى ذلك عذراً ، إلا أننا نرى أن هذه الحادثة إلى جانب غيرها الكثير يجب أن توجه ساسة العرب إلى اتخاذ موقف صارم من سياسة أمريكا العابثة .

● لا تزال الأحوال فى تونس مضطربة ونشاط الأحرار يزداد ، وهذه الحوادث التى نسمع بها كل يوم فى مدن تونس وقراها مظاهر حياة رائعة ندعو الله أن يباركها .

● لا يزال القتال مستعراً فى كوريا والهند الصينية ، ولا تزال الثورات قائمة على الظلم فى غينيا وجنوب أفريقيا وتونس وتنجانيقا .

● رفضت تركيا دعوة وزير خارجية باكستان إلى مؤتمر رؤساء الدول الإسلامية استناداً إلى أنها دولة ليس لها دين رسمى .

● أذاع الدكتور مالان رئيس وزراء حكومة جنوب أفريقيا حديثاً استنكر فيه القرار الذى سبق أن اتخذته بريطانيا بمنح مستعمرة ساحل الذهب الحكم الذاتى قائلا « إن هذا القرار التمس حفز الشعوب فى جميع أنحاء القارة الأفريقية إلى المطالبة بالاستقلال الذاتى » .

● فى الخطاب الذى بعثه الامبراطور هيلاسيلاسى إلى بابا وبطريك الكرازة المرقسية فى الإسكندرية وصف فيه الامبراطور نفسه بأنه « الأسد الخارج من سبط يهوذا هيلاسيلاسى الأول المختار من الله ملك ملوك أثيوبيا » .

● طبع القرآن الكريم فى الأردن على طريقة بريل لتيسير تلاوته لمكفوفى البصر .

● هاجم المارشال تيتو فى خطابه الأخير فى مؤتمر الحزب الشيوعى اليوغوسلافى الدول الغربية وروسيا على السواء ودعا يوغوسلافيا لتأليف كتلة عالمية ثالثة .

● كتب أحد المعلقين الأمريكيين فى تأييده الجنرال ايزنهاور يقول : إن الولايات المتحدة ، بل العالم فى حاجة إلى رئيس تكون الأخلاق المتينة أبرز صفاته ، أما حاجة أمريكا فللمشاكل الداخلية الخطيرة ، وأما حاجة العالم إليه فلأن السنوات القلاقل القادمة مليئة بالاحتمالات المخيفة التى لا يبدد من عنفها غير زعامة شريفة نظيفة تتقيد بالاعتبارات الأخلاقية أبعد حدود التقيد .

● عقدت اتفاقية عسكرية واقتصادية بين الولايات المتحدة واسبانيا تقضى بإنشاء قواعد عسكرية فى إسبانيا وتحويل ميناء قادش الى قاعدة حربية من الطراز الأول .

● يلاحظ أن السلطات الأمريكية تنشط نشاطا واضحا فى المجال الثقافى فى بلاد الشرق الأوسط — وفى مصر على الخصوص — كما نشطت من قبل فى المجال الاقتصادى .

● بالرغم مما ينشر فى الصحف من احتفاء ارتريا بانضمامها للحبشة بأمر هيئة الأمم المتحدة تحت تاج هيلاسيلاسى إلا أنه قد وردت لنا تقارير تذهب إلى ضيق مسلمى أرتريا بهذا الضم وفزعهم من المستقبل الذى يتهددهم معتبرين بحالة مسلمى الحبشة .

● تحرص كثير من الصحف على نشر صور ملوك العرب أثناء لهوهم .

● لا تزال الأحزاب السياسية المعارضة فى العراق مصرة على مقاطعة الانتخابات النيابية .

● صرح وزير الدفاع الأردنى بأنه تقرر تدريب اللاجئين فى فلسطين العربية وعددهم ٤٠٠ ألف تدريباً عسكريا .

● تمت فى الأسبوع الماضى مناورة كبرى قامت بها قوات الحلفاء فى البحر المتوسط اشتركت فيها وحدات أمريكية وبريطانية وتركية وفرنسية ويونانية ، وكان ميدان المناورة الساحل التركى .

● لم يدرج الاعتماد الذى كان يخصص لقسم الصحافة العربية بهيئة اليونيسكو فى ميزانية الهيئة لعام ١٩٥٣/٥٤ ومعنى ذلك الغاؤه بعد إنشائه بمدة سنة واحدة .

● اعتزم جون ملك سباق السفن فى بريطانيا ضرب الرقم القياسى العالمى للسرعة فى البحر فصنع سفينة نفاثة بلغت تكاليفها ١٥ الف جنيها وسماها « كروسيدر Crusader » وهو الاسم الذى كان يطلق على جنود البابا فى الحروب الصليبية ، ومن تمام الخبر أنه بعد أسبوع من نشره انفجرت السفينة بصاحبها فى ظروف مجهولة .



بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات هذا العدد